
روايات مصرية للجيب
زهور
102
النّورس الحزين
Looloo
www.dvd4arab.com

هذه السلسلة ..

عندما تتحوّل حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء ..

وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..

يتوق قلب كل منا إلى الحبّ .. الحب الذى يروى هذه المشاعر .

فيعيد إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب .. وفى لحظات الكراهية .. وفى لحظات الجفاف .. فيشع عبيرها الفوّاح فى ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

الفصل الأول

فُتحت ستائر الفجر على نهار شتوى دافئ ، وما لبثت الشمس أن أشرقت على حوش (مسعدة) فغمرته بضيها ودفئها .. كان الحوش القابع فوق الطرف الجنوبى من حى «بولاق الدكرور» يمتد فوق بضعة أفدنة ، ارتفع فوق حده الغربى صف طويل من دور ذات طابق واحد تشبه العشش ، مبنية بالطوب اللبن ، ومسقوفة بألواح خشبية بالية ، ورقائق من الصاج الخردة ، تعلوها أكوام من القش ومخلفات الحوش .. وفى الناحية المقابلة لها اصطف عدد كبير من عربات القمامة الخشبية ، وبجوارها الحمير التى تستخدم فى جرها ، وقد راحت تنهض من رقادها تباعًا ، مستقبلة يومها الجديد بنهيق مزعج ، ومن خلف العربات والحمير امتدت تلال من القمامة بطول الحوش وعرضه ، محتلة الناحيتين الشرقية والشمالية ، بينما تُركت الناحية الجنوبية خالية كبوابة للحوش ، ليس بها سوى شجرة توت عجوز جافة ، وقفت وحيدة مهملة ، لا يتذكّرها سوى بعض الطيور الشاردة التى تحط عليها بغير انتظام ..

وكان سكان الحوش برجالهم ونسائهم وأبنائهم لا يزيدون على المائتى نسمة ، تعمل الغالبية العظمى منهم فى جمع القمامة ، والتجارة فى مخلفاتها ، بينما البقية الباقية من البلطجية والمنحرفين ، وهو ما صبغ حياتهم جميعًا بالغلظة والشراسة .. ولكن هذه الغلظة والشراسة كانت تأتى عند شخصية واحدة وتتوقف تمامًا .. عند (مسعدة) ! تلك العجوز كفيفة البصر ، ضئيلة الحجم ، التى لا تكاد تزن بضعة كيلوجرامات ، ولا تكاد تبرح دارها ، ومع ذلك تتمتع بسطوة عجيبة على هؤلاء المسعورين ، لا لشىء إلا لأنها مالكة الحوش بمحتوياته من أبنية وعربات قمامة ودواب .. بالإضافة إلى كونها أكبر تاجرة فى محتويات القمامة .. أى أنها المتحكّمة بمفردها فى إيوائهم وأرزاقهم .. ولأنها قبل كل ذلك من نفس طينتهم ، ربيبة الشوارع والزرائب ، أى أنها تفهمهم جيدًا ، وتعرف كيف تقبض على زمامهم ..

ولم يكن لـ (مسعدة) أهل أو نسل .. لم يكن لها سوى ابنة بالتبنى لم تتجاوز العاشرة من عمرها ، تبنتها منذ أن عثرت عليها زوجة أحد الزبالين فى مدخل الحوش وهى تبكى فى لفافتها ، ويومها هتفت زوجة الزبال وهى تهدهدها فى فرحة وحنان : «شربات يا خالة (مسعدة) .. شربات»

ومن يومها صار (شربات) هو اسم اللقيطة ، وقررت (مسعدة) تبنيها ، وعهدت إلى زوجة الزبال بإرضاعها ، وصارت (شربات) واحدة من أطفال الحوش ، وراحت تنمو بينهم وهى تتشرب من خشونة حياة الحوش ، ومن شخصية (مسعدة) حتى أطلق عليها الجميع : «مسعدة الصغيرة» .

واستيقظ كل ما فى الحوش : الناس ، والحيوانات ، والطيور .. وارتفع نهيق الحمير معلنًا عن مولد يوم كدح جديد .. ودبت الحركة فى الحوش ، وأقبل الزبالون على عرباتهم يربطون إليها الحمير ، ويجهزونها للخروج ، وأقبلت عليهم (شربات) بسنواتها التسع ، وبشخصيتها الجادة يسبقها صوتها الحازم :

ـ صباح الخير يا عم (رجب) ..

وأجابها الزبال العجوز ببشاشة :

ـ صباح الفل يا (شربات) يا بنتى .

ـ عندك حساب أسبوع يا عم (رجب) .

أخرج (رجب) ربع جنيه من جيبه ، وناوله لها باسمًا :

ـ خذى يا معلمة (شربات) ..

وتدخل زبال شاب مداعبًا ، وهو يربط حماره إلى عربته :

ـ معلمة مرة واحدة ؟!

التفتت إليه (شربات) بلهجتها الخشنة :

ـ وأنت أيضًا يا خفيف عندك حساب يومين .

ـ خذى يا معلمة .. خمسة قروش .

ـ ناقص «نص أفرنج» .

ـ قولى يا مسهل يا قطة .

وصاح الزبال الشاب فى حماره :

ـ حاااا ..

وتحرك بعربته ، وتبعه الزبال العجوز ، بينما الطفلة تدعو لهما بالتساهيل ، وإذا بصياح عصبى أجش يأتى من أحد الدور ، فغمغمت الطفلة فى قرف كعادتها :

ـ يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم .

ثم مضت تباشر عملها .. ولم يكن صاحب الصياح الأجش المعتاد سوى «عنتر أبو الغيط» .

و (عنتر) هذا لم يكن سوى أحد الثوابت السيئة فى الحوش ، بل يكاد يكون أسوأها على الاطلاق .. إنه عاطل كريه الشكل والطبع ، لا يعرف من الحياة سوى الطعام وتدخين «الشيشة» ، حتى جلبابه الكالح الأقذر من أرض الحوش لا يبدله إلا عندما يلتصق بجسده من شدة قذارته وعفونته ، ولم يكن صياح (عنتر) الذى يملأ الحوش كل صباح إلا ليوقظ الطفلين (سعيد) و (خليفة) من نومهما فوق أرض حجرتهما .. وحينما لم يفلح فى إيقاظهما اليوم بالصياح سارع بالتقاط «جردل» ماء بارد كان بجوارهما ، وصبه فوقهما دفعة واحدة ، لينتفض الطفلان من نومهما مذعورين كضفدعين صعقتهما برودة الماء ، وبينما انطلق (سعيد) هربًا ببلله من بطش أبيه المعتوه ، انتفض (خليفة) صارخًا مستغيثًا بأمه وهو يرتج بعنف .. وأقبلت (حسنية) جريًا ، وما إن وقعت عيناها على ابنها حتى صرخت فى ذهول :

ـ ما هذا ؟!

وقفزت نحو طفلها تنزع عنه ثيابه المبللة وتجففه ، وهى تهتف فيه مذهولة :

- من فعل بك هذا ؟

ولم يستطع الطفل الجواب من شدة ارتجافه ، واصطكاك أسنانه ، وكل ما استطاعه هو أن رفع عينيه نحو (عنتر) فى فزع وهو يبكى ، فما كان من الأم الشابة سوى أنها التفتت إلى (عنتر) ، صارخة فيه بكل سخطها :

- يا ملعون ؟! أيفعل أحد هذا بطفل نائم ؟

وأجابها (عنتر) ساخرًا :

- طفل ؟! لماذا ؟! ألم تفطميه بعد ؟!

والتفت إلى الطفل بصياحه المقزز :

- هيا يا روح أمك .. هيا اعمل بثمن الطفح الذى تطفحه ..

واستدار مغادرًا الحجرة ، بينما (حسنية) تشيعه بسخطها :

- اذهب ، إلهى لا يرجعك .

وراحت الأم الشابة تواصل استبدال ثياب طفلها المبللة بثياب جافة وهى تهدئ من روعه ، بينما (خليفة) يتوسل إليها بالدموع :

- هيانترك هذا الحوش ياماما .. هيا نعود إلى حجرتنا القديمة .

ولم تملك (حسنية) أن تجيبه بشىء ، تطلعت إليه فى حيرة لبرهة ، ثم عادت تهدئه قائلة :

- سنعود يا حبيبى ، إن شاء الله سنعود ، اذهب أنت الآن مع (سعيد) ، واتركنى أنا أتدبر هذا الأمر .

- يا ماما .. ياماما أنا لا أحب هذا العمل ، ولا أطيق (سعيد) ولا أباه ، ولا الحوش كله .

- اهدأ يا حبيبى ، اهدأ لأجل ماما حبيبتك ، هل يرضيك أن تجلب النكد لها ؟

- لا يا ماما ، لا .. أنا أحبك ، ولا أريد أن أغضبك أبدًا .

- إذن اذهب مع (سعيد) الآن ..

- أمرك يا ماما .. أمرك .

- هيا جهّز معه العربة ، وسوف ألحق بكما بالساندوتشات .

- أمرك يا ماما .

ووضعت الأم الحنون قبلتين حانيتين على وجنتى طفلها ، انصرف بعدهما (خليفة) مرضيًا ، بينما مضت (حسنية) تعد الساندوتشات له ولـ (سعيد) ، ولكن ما هى إلا لحظات

حتى سمعت صراخ (شربات) فى (سعيد) ، فانطلقت إلى الحوش لتفاجأ بـ (سعيد) جاثمًا فوق (خليفة) على الأرض ، وقد طرحه محاولاً ضربه ، فاندفعت ترفع (سعيد) من فوق ابنها ، وهى تصرخ فيه :

ـ ولد يا (سعيد) ، انهض يا بن المفترى .

ودفعت بالطفل المتوحش بعيدًا ، والتفتت إلى ابنها توقفه ، وتنفض عنه التراب ، وتسأله فى جزع وعتاب :

ـ ما هذا يا (خليفة) ؟ لماذا تتشاجران معًا ؟

ـ سبنى بك .

ـ كنت أخبرنى ، ولكن لا تتشاجر معه .

ـ هو الذى تشاجر معى .. إنه قذر مثل أبيه .

ـ لا عليك يا حبيبى .. سوف أجعل أباه يعاقبه على ذلك .

ـ أبوه يشجعه ، لا يعاقبه .

ـ لا يا حبيبى ، سأجعله يضربه لقلة أدبه .. اذهب معه الآن إلى عملكما ، وسترى بنفسك عقابه عندما تعودان .

والتفتت إلى (سعيد) الذى كان قد اعتلى العربة ، وأمسك بلجام الحمار ، تحذره فى صرامة :

ـ ولد يا (سعيد) ، لن تفلت من يدى إذا ضايقته فى الطريق .

وكان رد (سعيد) عليها أن أشاح لها بيده بسفالة واستهزاء ، ثم هوى بعصاه الغليظة على الحمار المسكين كى يسارع بالتحرك ، فى حين انطلق صياح (عنتر) من داخل الدار مناديًا (حسنية) بألفاظ أقذر من جلبابه وجسده ، فما كان من المسكينة إلا أنها تسمرت فى مكانها يمزّقها إحساس مرير بالقهر والهوان .

★ ★ ★

حتى شهور قليلة مضت كانت (حسنية) فى حال غير الحال .. كانت ربة أسرة صغيرة سعيدة مكونة من زوجها (سلامة) وطفلهما (خليفة) .. وصحيح أنها كانت أسرة فقيرة جدًا ، ولكنها كانت ترفل فى سعادة عجيبة ، فالزوج الراحل رغم أنه كان عاملاً بسيطًا باليومية ، إلا أنه كان رجلاً طيبًا حنونًا بشوشًا ، وكان حنانه وبشاشته يجعلان (حسنية) تذوب فيه حبًا ، وتبذل أقصى ما بوسعها لإسعاده .. أما (خليفة) فقد كان قرة عيونهما .. كان طفلاً جميلاً ذكيًا راقيًا رغم تواضع البيئة التى وُلِد فيها .. وكان

رصينًا ناضجًا وكأنه رجل فى هيئة طفل .. وحينما التحق بالمدرسة تجلى تميزه أكثر بحبه للمدرسة والدراسة والمدرسين ، وبدا عليه التفوق مبكرًا .

وعندما انتبه أبواه لذلك ازدادت فرحتهما به ، وازداد أملهما فيه ، فراحا يضاعفان من رعايتهما وتشجيعهما له ، وقد بلغت بهما الآمال حد التبارز على مستقبله .. فأبوه يريده طبيبًا ، ويرى أنه خُلق ليكون طبيبًا ، بل إن صورته وهو يرتدى البالطو الأبيض ، وسماعته الطبية تزين صدره راحت تملأ خياله ، ولا تبرحه لحظة .. بينما أمه تريده ضابط بوليس ، ولا تكاد تمر بها لحظة دون أن تتخيله وهو يدخل عليها ببدلته الرسمية ضابطًا يشع بهاءً ووجاهة .

وهكذا كان حال (حسنية) على فقرها ..

سعادة وأمان وآمال حلوة فى الحياة ..

وهكذا اطمأنت للأيام حتى فاجأتها بوجه آخر لم يخطر لها ببال :. وجه قاس خال من أية رحمة أو إحساس ..

مات (سلامة) ..

اختطفه الموت فى لحظة دون سابق إنذار ..

خرج إلى عمله صباحًا ببشاشته وحنانه وابتسامته الدافئة ، ولم يعد .. صعقه «كابل كهربائى» وهو يحفر فى موقع صرف صحى مع العمال ..

وهكذا فى لحظة واحدة ، وبإشارة واحدة من القدر ، فقدت المسكينة الحب والسند والأمان والآمال .. ولم يتبق لها سوى طفل يتيم ، وفقر عجيب سد عليها كل منافذ الرحمة .. منع عنها إيجار الحجرة المتواضعة التى تأويها مع طفلها ، ومصروفات (خليفة) الدراسية ، حتى لقمة الطعام انقطعت عنهما ، وراح الذهول يضربها وهى تتلقى خطاب فصل (خليفة) من المدرسة ، ومالكة المنزل تهددها بالطرد ، ثم وهى تعجز عن تدبير طعام الطفل .. وما لبث ذهولها أن تحول إلى إحساس مرير بالضياع والانهيار .. ولكنها سرعان ما أفاقت لنفسها ، وأدركت أنه حتى الانهيار ليس من حقها ، ففى رقبتها طفل يتيم سيضيع بانهيارها .. ومن هنا كان إسراعها بالسعى وراء أية فرصة عمل ، ولم يطل سعيها ، جاءتها الفرصة عن طريق جارة لها بالعمل فى خدمة أسرة ثرية .. وكم كان الأمر شاقًا ومؤلمًا لها فى بدايته .. فهى لم تتخيل يومًا أن تكون خادمة لأحد .. ولكنها ما إن عادت فى نهاية اليوم إلى طفلها محملة بصنوف من

الطعام والحلوى منحتها لها مخدومتها الطيبة ، وما إن رأت فرحة (خليفة) بالطعام والحلوى حتى تلاشت مرارتها ، وحلت محلها سعادة رطبت قلبها ..

قلبها ؟!!

ها هو القدر ما زال واقفًا لها بالمرصاد .. سبعة أيام عمل لا أكثر ، ووقعت المسكينة فى مطبخ مخدومتها تصارع الموت .. وعلى الفور تم نقلها إلى أقرب مستشفى ، لتبدأ رحلة طويلة من الفحوص والتحاليل والأشعة ، انتهت باكتشاف ورم خبيث فوق قلبها !! وكان رد فعل المسكينة أن رفعت عينيها إلى السماء بنظرة تفوق بحور العالم ومحيطاته ذهولاً وفزعًا .. وكان طبيعيًّا أن تستغنى مخدومتها عن خدماتها ، لتعود المسكينة إلى حجرتها تقبع فيها بطفلها فى حضنها مسلّمة أمرها كله لخالقها .. ولم تدر كم من الزمن مر بها ، حتى دخلت عليها جارتها تفاتحها فى فكرة الزواج كطوق نجاة لها مما هى فيه ، وتخبرها بأمر ذلك الزبال الأرمل الذى يربى طفلاً يتيمًا فى عمر ابنها ، ويحتاج إلى زوجة ، ولكن ما إن بلغت الجارة هذا الحد من حديثها حتى أطاح البركان بغطائه ، وانفجرت

حممه فى وجه الجارة ، انفجرت فيها (حسنية) تعنّفها اعتراضًا على تفكيرها .. انطلقت تصرخ فيها مذهولة :

« أنا ؟! أنا أتزوج بعد (سلامة) ؟! أنا ؟! » ..

ولكن الجارة الطيبة لم تغضب منها ، ولم تتركها .. مضت تهدئها ، وتخاطب عقلها بكلمات حكيمة حانية ، مؤكدة أن كل الهم الآن هو إنقاذها هى وطفلها من البهدلة .. وأن الصواب فى ظروف كهذه أن تحكّم عقلها لا قلبها .. ونجحت الجارة .. نجحت فى إزاحة غشاوة الانفعال من فوق بصيرة المسكينة .. ووجدت (حسنية) نفسها فى النهاية توافق ، وجاءها (عنتر) طيبًا هادئًا باشًّا ، متعهدًا بمنحها حياة كريمة هانئة تعوضها عن كل ما لاقته من مرار .. وعلى الفور تم سداد الإيجار المتراكم ، وعاد (خليفة) إلى مدرسته ، وتوافرت كل احتياجاته هو وأمه ، وغمرهما (عنتر) بحبه وحنانه .. ووفّى (عنتر) بكل وعوده .. نعم .. وفّى بكل وعوده .. ولكن لبضعة شهور لا يزيد عددها على أصابع اليد الواحدة .. وجدت (حسنية) نفسها بعدها تنتقل بطفلها بالإكراه إلى حوش (مسعدة) ، ووجدت (عنتر) يمنع (خليفة) من الذهاب

إلى المدرسة ، بل ويرغمه على الانضمام إلى ابنه (سعيد) فى جمع القمامة من المنازل ووجدت نفسها هى وطفلها أسيرين فى قبضة بلطجى عاطل يعيش على ما يجمعه ابنه من قمامة ، وما يسرقه من المنازل .. ووجدت نفسها تخوض حربًا ضارية لا تنتهى ضد (عنتر) وابنه دفاعًا عن طفلها .. وصارت حياتها محصورة بين استماتتها فى حماية ابنها من هذين البلطجيين ، وبين حسرتها كل صباح وهى ترى (خليفة) التلميذ الوجيه النابغة الذى علقت عليه أجمل الآمال والأحلام يمضى بعربة القمامة مع (سعيد) مرتديًا ثياب الزبالين .. وبين التردد على المستشفيات محاولة تخفيف عذاب آلام السرطان الذى ينهش قبلها بلا رحمة .. حتى أجلسها أحد الأطباء أمامه ذات يوم بعد فحصها ، وفحص أشعتها ليخبرها بأن قلبها لن يصمد أمام السرطان المتوحش أكثر من شهور معدودة .. أى أن ساعتها اقتربت !

★ ★ ★

الفصل الثانى

مضى (سعيد) و(خليفة) بعربتهما فى شوارع حى «جاردن سيتى» يجمعون القمامة من عماراته وفيلاته .. ورغم أن هذا الحى الراقى معروف بهدوئه الشديد ، إلا أن جو الحداد على الرئيس «أنور السادات» زاد من هدوئه ، وقلة الحركة فيه .. كانت الشوارع شبه خالية ، ولم تكن الساعة قد بلغت السابعة صباحًا ، حين وصل (سعيد) و(خليفة) إلى قصر (دولت) هانم الذى يتوسط شارع «ابن الهيثم» .. وكعادته راح (سعيد) ينادى (خليل) حارس القصر ليفتح لهما ، ولكنه فوجئ هو و (خليفة) برجل ضخم مخيف غير (خليل) ينهرهما من خلف البوابة ، ويطلب منهما الانصراف لعدم وجود قمامة اليوم .. ونظر الطفلان إلى بعضهما فى دهشة ، وتساءل (سعيد) :

- من يكون هذا الرجل ؟!

ولم ينتظر جوابًا ، تحرك بالعربة حتى بلغ السور الخلفى للقصر ، ثم وقف فوق العربة ، وراح يطل برأسه من فوق

السور فى حذر مستطلعًا الأمر .. فلم يجد ما يثير ريبته .. كان الفناء الخلفى خاليًا تمامًا ، فأشار إلى (خليفة) بأن يتبعه ، وقفز هو إلى الفناء ، وتبعه (خليفة) .. وانطلق الاثنان جريًا فى الفناء .. كان (سعيد) يأخذ قمامة القصر منذ سنة تقريبًا ، وكثيرًا ما كان يحلو له مغافلة حارس القصر ، ويقوم باقتناص جولة سريعة فى فناء القصر وحديقته ، عله يعثر على شىء يستطيع سرقته ، بل إنه كثيرًا ما فعلها داخل القصر ذاته .. ومن هنا كان يعلم بتفاصيل القصر جيدًا ، ومن هنا قصد نافذة تطل على البهو الرئيسى للقصر ، ومن خلفه (خليفة) الذى انحنى بناء على طلب (سعيد) ، بينما اعتلى الأخير ظهره ، ملقيًا نظرة حذرة عبر النافذة الزجاجية المغلقة ، ليتجمد فى مكانه من المفاجأة المروعة ..

كانت (دولت) هانم سيدة القصر مكممة وموثقة تمامًا فى أحد المقاعد ، بينما ثلاثة رجال أشداء ملثمين يحيطون بها ، وأحدهم يضع المطواة على رقبتها ، وهو يتحدث إليها .. وكانت نظرات (دولت) هانم وهى تحدق فيهم تصرخ بهول الفزع والذهول ، وظل (سعيد) متسمرًا فوق ظهر (خليفة) ، حتى نهره الأخير متألمًا ، فنزل من فوقه ، وراح يحدّق فيه بذهول ، ثم انحنى لـ (خليفة) ليصعد هو الآخر ، ويتأكد مما رأى ، وحينما تأكد الاثنان ، وقفا يضربان أخماسًا فى أسداس .. وكان رأى (خليفة) أن يسارعا بإبلاغ البوليس .. ولكن (سعيد) الذى كان يرتعد من سيرة البوليس مثل أبيه رفض ، بل إن سيرة البوليس جعلته يفيق من الصدمة ، وينفض الأمر كله عن كاهله ، بل ويطلب من (خليفة) الانصراف إلى حال سبيلهما فورًا ، وفوجئ (خليفة) بخسته ، فـ (دولت) هانم معروفة بطيبتها وكرمها ، وكلما كانت تصادفهما كانت تمنحهما بقشيشًا كبيرًا ، وتوصى الخدم بمنحهما بعضًا من الحلوى والفاكهة ، فكيف يتخليان عن سيدة بهذه الطيبة ؟

وأشار (سعيد) لـ (خليفة) بأن يتبعه ليمضيا إلى حال سبيلهما ، فمضى (خليفة) ، ولكن فى اتجاه آخر ، انطلق يعدو بأقصى سرعته قاصدًا قسم البوليس ، ووقف أمام ضابط القسم يبلغه بالأمر وهو يلهث من الجرى .. وعصفت الدهشة والحيرة بالضابط لصغر سن (خليفة) ، ولكنه ما لبث أن انتفض واقفًا ، وفى دقائق كان ينطلق مع الطفل على رأس قوة كبيرة ، وبسرعة تمت محاصرة القصر ،

واقتحامه ، والقبض على العصابة ، وإنقاذ (دولت) هانم وثروتها من هلاك محقق ، وإنقاذ الحارس والخدم أيضًا الذين كانوا موثقين فى المطبخ .

★ ★ ★

ولم تصدق (دولت) هانم أنها نجت من الهلاك ، وحينما علمت بأن الفضل كله يعود إلى بلاغ (خليفة) ، وحُسن تصرفه وشجاعته ، وجدت نفسها تتأمل الطفل وكأنه ملاك أرسل من السماء لنجدتها .. احتضنته كثيرًا ، وشكرته كثيرًا ، وفى نفس الليلة استضافته هو وأمه و (عنتر) وابنه فى القصر ، واحتفت بهم بعشاء ضخم ، ومنحت (خليفة) مكافأة مالية دستها فى يد أمه ، وحينما رآها (عنتر) تدس النقود فى يد (حسنية) أسرع يهتف فى الهانم بوقاحة عجيبة :

ـ و (سعيد) كان معه يا ست هانم .

فابتسمت الهانم فى حنو ، وناولته هو الآخر مبلغًا من المال ، وأهدت الطفلين علبتين كبيرتين من الحلوى الفاخرة .. وانصرف (عنتر) و(حسنية) والطفلان فرحين بعطايا الهانم وكرمها .. وكانت ليلة سعيدة لـ (عنتر) والطفلين ..

انتزع (عنتر) مكافأة (خليفة) من أمه ، ودسها فى جيبه مع مكافأة (سعيد) ، ثم راح يدخن الشيشة باستمتاع وسعادة ، وهو يدندن بأغنية « أحمد عدوية » : « حبة فوق ، وحبة تحت » ، بينما انكب الطفلان على الحلوى يلتهمونها بفرحة وشراهة .. وإذ بـ (شربات) تنادى من الخارج :

ـ خالة (حسنية) .. خالة (حسنية) .

وإذا بـ (خليفة) يتهلل فرحًا ، ويتوقف عن الأكل ، بينما دعتها (حسنية) إلى الدخول ففعلت .. وهب (خليفة) واقفًا ، وأخذ بيدها ، وأجلسها معهما لتشاركهما وليمة الحلوى .. وشجعتها (حسنية) :

ـ كلى معهما يا (شربات) .. كلى يا حبيبتى .

ومد (خليفة) يده لها بقطعة حلوى ، وتأبّت الطفلة خجلاً ، فقال لها (خليفة) :

ـ لن آكل حتى تأكلى أنت .. أخبريها بأن تأكل معنا يا ماما .

فناشدتها (حسنية) :

ـ خذى منه يا حبيبتى .. خذى منه ..

وأخذت منه (شربات) ، ثم قالت له :

ـ أنت طيب قوى يا (خليفة) .

وإذا بـ (سعيد) يقبض على معظم الحلوى بكفيه ، وينهض بها قائلاً :

ـ هذا حقى .

وهتفت (حسنية) توبخه :

ـ (سعيد) !

ولكن الطفل البلطجى انطلق جريًا بالحلوى ..

وبدا الغضب على (خليفة) ، ولكن (شربات) أسرعت تهدئه بحنان ، وهى تشير إلى ما تبقى من الحلوى :

ـ لا عليك يا (خليفة) .. هذا يكفينا .

وهدأ (خليفة) ، وقال لها فى خجل :

ـ أنا آسف يا (شربات) ، كان يجب علىّ أن أدخر لك نصيبك .

ـ هذا المتوحش كان سيمنعك .

وأمسك (خليفة) بقطعة حلوى أخرى ، ومد يده ليضعها فى فمها ، ولكنها أمسكتها منه ، فهمس لها مبتسمًا :

ـ أتخجلين منى ؟!

ـ كيف أخجل منك ؟ أنت صاحبى .

ـ حقًا يا (شربات) ؟

ـ طبعًا يا (خليفة) .. وستظل صاحبى طوال العمر .

«طوال العمر ؟!» .. انتشلت العبارة (حسنية) من شرودها الحزين .. رمقت الطفلين بنظرة حسرة ، ثم عادت إلى شرودها .. فيم كانت تفكر ؟ هى نفسها لا تعلم .. كل ما تشعر به هو أن هناك شيئًا غامضًا عجيبًا يتحرك فى عقلها .. شيئًا يشبه فكرة كبيرة مبهمة تحاول الخروج من شرنقتها .. وزحفت ساعات الليل غير محسوسة ، والمسكينة تكابد هذا المجهول الذى يجهد عقلها دون أن يعلن عن نفسه .. وارتفع أذان الفجر ، فنهضت تتوضأ وتصلى ، وبينما هى تسجد بين يدى خالقها ، قفز هذا المجهول خارج شرنقته معلنًا عن نفسه ، ولم يكن أكثر من

فكرة ! ولكن يا لها من فكرة ! فكرة جعلت كل خلاياها تنتفض فى عصبية ، وجعلتها هى نفسها تردد فى ذهول :

ـ (معقول ؟!) .. ومن لحظتها وحتى منتصف النهار راحت (حسنية) تلف وتدور حول نفسها فى عصبية وتوتر ، وهى تتقلب ما بين دهشتها لهذه الفكرة المجنونة تارة ، وبين الهمة بتنفيذها تارة ثانية ، وبين استنكارها لها من الأساس تارة ثالثة .. صراع رهيب دار بين (حسنية) وفكرتها ، وكان لا بد لإحداهما أن تنتصر على الأخرى ، فانتصرت الفكرة العنيدة .. وما كادت شمس اليوم تغرب حتى كانت (حسنية) تجلس بين يدى (دولت) هانم فى القصر ، وتتطلع إليها فى رهبة وتردد المقبل على مغامرة مجنونة .. كانت آثار السهر والفكر والمرض واضحة تمامًا على وجه (حسنية) ، أما الهانم فقد أخذتها الدهشة من أمر زائرتها التى جاءتها بلا سابق موعد تطلب مقابلتها لأمرٍ هام .. ولكن ها هى تجلس قبالتها منذ ما يزيد على الربع ساعة تحدق فيها بعصبية ورهبة دون أن تتفوه ببنت شفة ، حتى نفذ صبر الهانم ، فسألتها متعجبة لأمرها :

ـ ما الأمر يا بنتى ؟!

وهمت (حسنية) بأن تجيب الهانم ، ولكنها لم تستطع .. احتبست الكلمات فى حلقها ، وزادها ذلك توترًا ورهبة .. وازداد احتقان وجهها إلى درجة مؤلمة .. فسرى فى الهانم إحساس بالشفقة عليها ، وراحت تهدئها ، وتطمئنها باستعدادها لسماعها وتفهمها ، مهما كانت طبيعة ما ستقوله ، ومضت بكل حنانها وحكمتها تشجعها على النطق ..

ونجحت الهانم ، وتكلمت (حسنية) ، ولكن برهبة مزقت الكلمات وهى تخرج من فمها :

ـ ست هانم ، الموضوع الذى جئتك بشأنه قد يجعلك تريننى مجنونة ، أو طماعة ، أو مبتزة حقيرة ، ولكن إذا ما أفسحتى لى صدرك حتى النهاية ، فسوف تعذريننى فيه .

ـ تكلمى يا (حسنية) ، وسوف أفهمك .

ـ (خليفة) يا ست هانم .

ومضت (حسنية) تقص على مسامع الهانم حكاية (خليفة) منذ أن كان تلميذًا نجيبًا بهيًا ، تسر العين برؤيته ، ويبشر بآمال كبيرة فى الحياة ، حتى انتهاء الحال به زبالاً مقزز الهيئة ، يقضى نهاره فى جمع قمامة الناس ،

وليله فى النوم على الأرض فى حوش (مسعدة) .. وبدت (حسنية) وهى تحكى وتتذكر ، وكأنها تنبش فى جمر من النار ، وبدا التأثر الشديد على الهانم ، وراحت تتعجب فى نفسها من تصاريف القدر وفعل الأيام ، ثم نظرت إلى (حسنية) فى رثاء ، تسألها :

ـ حتى الآن لا أعرف مطلبك يا (حسنية) .

تعلقت عينا (حسنية) بوجه الهانم حتى اطمأنت إلى سماحتها ، فعادت تقترب من غايتها :

ـ ست هانم .. كما أرى ربنا سبحانه وتعالى أكرمك بنعم كثيرة : المال ، والجمال ، والصحة ، والحياة الحلوة الناعمة ... حياة كاملة ، ولكن ينقصها شىء واحد .. شىء واحد فقط ، إذا أكرمك به الله فسوف تصير حياتك جنة ..

صُدمت الهانم .. صُدمت بضغطة (حسنية) على الجرح .. وفوجئت بتدخلها فى حياتها الخاصة بهذه الطريقة الاستفزازية ، وكادت تنقلب عليها غاضبة ، لولا أن حالة (حسنية) ولهجتها كانتا تؤكدان أنها لم تقصد التطفل أو التجريح ، بل إن لها مقصدًا آخر تحاول بلوغه بطريقتها البسيطة ، واستردت الهانم نفسها من حالة الغضب التى

كادت تقلبها على زائرتها ، وعادت تتطلع إليها فى حنو شجع (حسنية) على المضى نحو مقصدها ، فمضت :

ـ نعم يا ست هانم .. حياتك الجميلة هذه لا ينقصها سوى طفل يملأ عليك حياتك .. طفل يكون بذرة طيبة ترعينها وتروينها ، وتفرحين بها وهى تنمو أمام عينيك .. ست هانم أنت كلك حنان ورحمة وأمومة .. أنت فعلاً أم .. أم حقيقية ، ولا ينقصك سوى ابن ترويه بأمومتك هذه .

مرة أخرى وخزت الزائرة العشوائية السيدة الرقيقة نفس الوخزة المؤلمة .. وكان طبيعيًا أن ينفد صبر الأخيرة ، وأن تزود عن نفسها .. حدجت زائرتها بنظرة عتاب وتأنيب ، وهى تقول لها فى جفاء :

ـ (حسنية) .. إذا كان لك حاجة محددة ، فهيا أبلغينى بها دون لف ودوران .

انتبهت (حسنية) إلى أنها أغضبت الهانم ، فأسرعت تمسك بيدها هاتفة بالدموع :

ـ ست هانم .. باللّه عليكى لا تغضبى منى .. حضرتك سيدة عظيمة متعلمة ، وأنا امرأة جاهلة بسيطة ، فاغفرى لى إذا كنت قد أسأت الأدب فى حديثى .

ـ ماذا تريدين يا (حسنية) ؟

ـ أريد أن أهديكى هذا الابن الذى سينير حياتك .

ضربت المفاجأة الهانم بعنف ، غمغمت مذهولة :

ـ ماذا ؟!

ـ نعم يا ست هانم .. أريد أن أهديكى الابن الذى سينير حياتك .

ـ أى ابن ؟!

ـ (خليفة) .

ـ ها !

هكذا شهقت الهانم ، وانتفضت واقفة تتفرس زائرتها بنظرات ذهول وارتياب .. وإذا بـ (حسنية) تنهض واقفة بهدوء ، ثم تقول للهانم :

ـ ألم أخبر حضرتك بأنك قد ترينني مجنونة أو طماعة أو مبتزة حقيرة ؟

ـ ومن تكونين فيهن ؟

ـ لا واحدة منهن يا ست هانم .. أنا أم .

ـ أم تأتينى لتبيعنى ابنها ؟!

ـ ست هانم ..

ـ انتظرى يا امرأة .. انتظرى .. ما بالك ؟ هل أطمعك أدبى فىّ ؟ جئتينى بدون سابق موعد ، واستقبلتك ، وحدثتينى فى أمور لاتخصنى ، وسمعتك ، وأقحمتى نفسك فى شئونى الخاصة ، وغفرتها لك .. ولكن أن تبلغ بك الوقاحة حد التفكير فى ابتزازى بهذه الطريقة الحقيرة ، فليس لك عندى سوى الطرد .. هيا .. هيا انصرفى قبل أن أجعل الخدم يلقون بك فى الشارع .

صُعقت (حسنية) .. كادت تسقط مغشيًا عليها ، ولكن شيئًا ما جعلها تسترد تماسكها على الفور .. إنه (خليفة) ومصيره من بعدها .. تشبثت برباطة جأشها ، وراحت تتطلع إلى الهانم قائلة فى هدوء وتوسل :

ـ لقد قلتها لك يا ست هانم : أنا لست مبتزة ، ولست مجنونة .. أنا أم .. أم جاءت تنشد الحياة لفلذة كبدها .

ـ وهل هناك حياة لطفل بعيدًا عن أمه ؟

ـ الأم هنا فى طريقها إلى الموت يا ست هانم !

فوجئت الهانم :

ـ الموت ؟!

ـ نعم يا سيدتى .

وإذا بـ (حسنية) تتناول مظروفًا ضخمًا كان على منضدة الصالون ، وتناوله للهانم ، وهى تقول :

ـ هذه الأوراق تثبت لحضرتك أن أيامى فى الحياة معدودة يا ست هانم ..

ولم تجد الهانم بدًا من فتح المظروف والاطلاع على ما فيه من تقارير طبية وأشعة ، لتجد نفسها تعاود النظر إلى (حسنية) ، ولكن بنظرات مختلفة تمامًا .. نظرات تفيض شفقة ورثاء .. بينما راحت (حسنية) تكابد هدير العذاب بداخلها ، وهى تقول للهانم :

ـ أم فقيرة تموت ، وطفل يتيم مقطوع من شجرة ، وسيدة ثرية طيبة فى حاجة إلى طفل يملأ عليها حياتها ، وقدر يجعل

هذا الطفل سببًا فى إنقاذ حياة هذه السيدة الطيبة .. فهل يمكن أن يكون هذا كله مجرد صدف ؟ أم إنه ترتيب .. ترتيب من القدر ذاته يا ست هانم .

وأمسكت (حسنية) بيد الهانم ، وصبت كل مشاعرها فى كلماتها ، وهى تقول :

ـ نعم يا ست هانم .. لقد قررها القدر ، ورتب لها .. قرر أن يكون (خليفة) أمانة فى رقبتك .

ارتجت الهانم ، هتفت مذهولة :

ـ (حسنية) ؟!

انهمرت الدموع من عينى (حسنية) ، وهى تقول :

ـ (خليفة) طفل نبيه وأمين ومهذب يا ست هانم .. لاتنظرى إلى هيئته الآن .. انظرى إلى معدنه الطيب .. انظرى إلى مستقبله إذا ما تم وضعه فى بيئة عظيمة مثل بيئة حضرتك .. لقد كان نابغًا حينما كان فى رعايتنا أنا وأبيه ، رغم فقرنا وظروفنا القاسية ، فما بالك إذا ماتولت تربيته سيدة عظيمة مثل حضرتك .. مؤكد سيكون كيانًا جميلاً .. وسيكون له شأن عظيم أنا واثقة من ذلك يا ست هانم .. بل إننى أراه كما أرى حضرتك الآن .

كانت (حسنية) تتكلم ، بينما عيناها تسطع بوميض عجيب من خلف دموعها .. وميض الواثق المؤمن كل الإيمان بما يقوله ، بينما الهانم تحدق فيها بطوفان هادر من مشاعر مختلفة .. ذهول من غرابة الموقف ، ورهبة من الفكرة ، وإشفاق على هذه المسكينة التى طحنها القدر ، وإشفاق أكبر على الطفل الذى كُتب عليه أن يستهل مشوار حياته بهذه المأساوية .. ثم هل هو حقًا ترتيب محسوب من القدر ؟ هل شاء القدر حقًا أن يعلق هذا الطفل فى رقبتها ؟

ها هى صورته تقفز أمام عينيها .. وها هى تدقق النظر فيه بتركيز شديد .. وها هى تراه وقد تم تنظيفه وهندمته .. وها هى تعبر السنوات بقفزة واحدة ، فتراه شابًا يانعًا ساحرًا وجيهًا ، وابنًا بارًا تباهى به المجتمع .. أنوار بهيجة سطعت فى قلب ونفس السيدة الأرستقراطية عندما بلغت بها بصيرتها هذا الحد من الخيال .. وإذا بكل المشاعر المتضاربة المدببة تتلاشى من داخلها دفعة واحدة ، ويحل محلها إحساس ناعم بهيج يسطع بالفرحة .. الفرحة بهذه الهدية الإلهية المهداة من القدر .. وإذا بها تعود بنظراتها مرة أخرى إلى (حسنية) ، وتتأملها بمزيج من الامتنان والشفقة ، وإذا بها تحتويها بنظرة حانية ، وابتسامة أكثر حنوًا .. وإذا بـ (حسنية) تتلقى

الرسالة ، فتسرع بالتقاط يد الهانم ، وتغمرها تقبيلاً بالدموع ، وهى عاجزة عن النطق من جموح مشاعرها ، وعندما استطاعت نطقت بجملة واحدة :

ـ مبروك عليكِ ابنك يا ست هانم !!

★ ★ ★



الفصل الثالث

مع غروب شمس اليوم التالى ، كانت (حسنية) تضع (خليفة) بين يدى (دولت) هانم .. كان الموقف مروّعًا : أم .. أم حقيقية .. أم حنون .. أم تفيض أمومة ، وتحمل بين ضلوعها قلبًا عليلاً ، لا تربطه بالحياة سوى وحيدها الذى لا يعى فى الحياة شيئًا ، تجبرها الظروف على قطع هذا الشريان بيدها ، وحرمان نفسها من مصدر الحياة الوحيد لها .. وإعطائه ظهرها مستقبلة الموت قبل أوانه ، وطفل غض يتيم ليس له فى الدنيا صدر حنون سوى صدر أمه ، يُنزع منه فجأة بلا رجعة .. يا لقسوة القدر حين يعتصر بقبضته الحديدية قلوبًا ضعيفة .. كان (خليفة) قد وعد أمه بألا يبكى أمام الهانم ، ولكن كيف لطفل فى رقته أن يحكم نفسه فى موقف فاجع كهذا ، راح يجاهد حزنه وهلعه كى يفى بوعده لأمه الحبيبة ، وراح يزم شفتيه بكل قوته ليمنع نفسه من البكاء ، ولكن دموعه هزمته ، واندفعت فوق خديه متسللة بملوحتها إلى فمه .. وبدا وجهه الأبيض الوسيم كحبة طماطم ملتهبة .. وفى النهاية انفجر باكيًا ،

وارتمى فى حضن أمه منهارًا يبكى فى تشنج مؤلم ، بينما راحت أمه تعتصره فى صدرها بكل قوتها ، وكأنها تريد أن تحشره داخل ضلوعها ، وإذا بها تفكر فى الانطلاق به عائدة من حيث أتت ، ولكنها سرعان ما أفاقت لنفسها .. أفاقها الموت المحلّق فوق رأسها ، مؤكدًا لها أنه لن يخلف موعده معها ، وناصحًا لها بأن تنهى ما بدأته .. استدارت نحو الهانم ، فإذا بها هى الأخرى منهمرة الدموع ، تحدّق فيهما بقلب يتمزق أمام هذا العذاب الإنسانى الذى لا يُحتمل .. وإذا بها تقول لها بصدق يفيض حنانًا :

- إذا كنت تريدين المكوث معه هنا يا (حسنية) .. امكثى .

تأملتها (حسنية) بحسرة من وراء دموعها ، ثم أجابتها :

- ما عاد هذا بمقدورى يا ست هانم .. لا هنا ولا هناك ..

وانشق قلب الهانم وهى ترى فعلاً طائر الموت العنيد يفرد جناحيه فوق رأس المسكينة .. ووجدت نفسها تضمها فى صدرها بكل حنانها ، قائلة لها :

- (خليفة) أمانة فى رقبتى أمام الله يا (حسنية) .. اسألينى عنه يوم نقف معًا بين يديه .

ـ ما أنبلك يا ست هانم .

وهمت (حسنية) بأن تقبل يد السيدة النبيلة ، ولكن الهانم لم تعطها الفرصة ، سحبت يدها بسرعة مرددة :

ـ أستغفر الله يا بنتى .

ثم مالت على (خليفة) ، وأخذته بين يديها ، وقالت له بابتسامة حلوة حانية :

ـ حبيبى ، أخبرتنى ماما بأنك تحب البسبوسة وبلح الشام .

أومأ الطفل بالإيجاب من باب الطاعة التى أوصته بها أمه ، فأردفت الهانم :

ـ وأنا عندى منهما كثيرًا ، اذهب مع «محروسة» وكُل منهما حتى تشبع .

واستدعت الهانم خادمتها الشابة ، وقالت لها :

ـ خذى (خليفة) ، وضعى أمامه كل ما عندك من حلوى .

والتفت الطفل إلى أمه ، وتعلقت عيناه بها فى حزن ورجاء ، فجثت أمامه على ركبتيها ، وأخذته بين يديها ، وراحت تقول له بابتسامتها الحزينة :

ـ حبيب ماما .. اذهب ، وكل والعب وافرح ، وأطع الهانم فيما تقوله إذا كنت تحب ماما (حسنية) .

تأملها الطفل من وراء دموعه ، ثم قال لها :

ـ أيمكننى أن أقبلك يا ماما ؟

وكاد يغشى على (حسنية) من شرخ قلبها ، ولكنها سارعت بتمالك نفسها ، واستعادة ابتسامتها ، ثم قالت :

ـ طبعًا يا حبيبى ، طبعًا .. هيا أعطنى أجمل قبلة عندك .

وطبع الطفل قبلته المبللة بالدموع على خد أمه ..

وهتفت (حسنية) :

ـ الله !! أول مرة أذوق قبلة بطعم العسل .. أأنت نحلة ؟

وابتسم الطفل ، وأردفت (حسنية) :

ـ هيا مع الدادة قبل أن يطمع أحد فى بلح الشام الذى ينتظرك .

ونظرت (حسنية) إلى الهانم ، وأشارت الأخيرة إلى خادمتها ، فانصرفت بالطفل .. ووقفت (حسنية) تودعه

بنظراتها الذاهلة حتى اختفى من أمام عينيها ، فاستدارت إلى الهانم تتأملها بنظرات تهدر بالرجاء ، فلم تملك الهانم إلا أن تضمها فى حضنها وهى تطمئنها :

ـ كما أخبرتك يا (حسنية) ، (خليفة) ابنى .

ـ ربنا يسعدك به يا ست هانم .

واستدارت المسكينة منصرفة ، وهى مصبوغة بعذاب يكفى لحجب الشمس عن الكون كله .. مضت تاركة الهانم مستغرقة فى تأملها الحزين لفعل القدر الذى لا يفرق فى فعله بين سلطان أو غفير !!

فلم تكن (دولت) هانم فى حقيقتها أفضل حالاً من (حسنية) .. فقد تضافرت ظروف قاسية لدفعها إلى هجر وطنها الحبيب «سوريا» والفرار إلى مصر فى مطلع شبابها ، تاركة خلفها الأهل والأحباب والأصدقاء .. كانت ابنة وحيدة لمناضل سياسى عظيم ضد الاحتلال الأجنبى لوطنها ، وكان الأب شديد الإيمان بقضيته ، فراح يزداد شراسة يومًا بعد يوم فى نضاله ضد المحتلين ، فلم يجدوا مفرًا من اغتياله ، ولم يكتفوا بذلك ، بل ظهرت نيتهم فى البطش بابنته

الوحيدة ، فلم تجد المسكينة مفرًا من الفرار بجلدها من براثن الأوغاد .. وجاءت إلى مصر ، لا تملك من الدنيا شيئًا سوى تاريخ والدها الناصع ، وموهبتها الأدبية الأصيلة .. كانت وقتها تقارب الثلاثين من عمرها ، وكانت فى ذروة جمالها وأنوثتها ، ولكن غيوم الأحزان التى زحفت على وجهها جعلتها تبدو وكأنها فى الخمسين من عمرها .. كانت تشعر وهى تجلس منكمشة فوق ظهر الباخرة التى تقلها إلى (الإسكندرية) وكأنها غصن ضعيف قُطع من شجرته ، ولكنها ما إن وطأت أرض المحروسة حتى فوجئت بأصدقاء والدها من المصريين فى انتظارها .. فوجئت بهم يلتفون حولها ، ويغمرونها بحنان عجيب ، وكأنها ابنتهم الغالية العائدة إليهم من بعد فراق طويل .. لحظتها شعرت وكأن الغصن الضعيف أعيد وصله بشجرته ، وشعرت بالأمان والدفء يسريان فى قلبها وأوصالها طاردين الخوف اللعين الذى كان يفتك بها ، وراح إحساسها بالحياة يعود إليها من جديد ، ووجدت نفسها تغمغم بالدموع : «نعم مصر أم الدنيا» ..

وكان أقرب هؤلاء الأصدقاء العظماء الذين عوضها بهم القدر (عز الدين محيى) ، أحد أقطاب السلطة فى الستينيات ، وسليل

كبرى العائلات السياسية فى مصر ، والمعروفة بنفوذها وسطوتها .. كان (عز الدين محيى) يكبر (دولت) بأكثر من عشرين عامًا ، ولكن شهامته البادية ، وطيبة قلبه ، وبشاشته ، فضلاً عن وسامته وجاذبيته الساحرة ، كلها كانت تجعله يبدو وكأنه شابًا يفور شبابًا وحيوية .. ومع ذلك بلغ هذه السن دون أن يتزوج ، وكان ذلك سببًا فى إثارة التساؤلات والدهشة من حوله .. وكان هو يفسر الأمر ببساطة بأنه لم يعثر بعد على نصفه الحلو الذى خُلق لإسعاده ، حتى وقعت عيناه على (دولت بشار) .. لحظتها أدرك على الفور أنه عثر على هذا النصف الذى طال انتظاره ..

ومن لحظتها راح السياسى الوسيم يحلق حول السندريلا الحزينة الوافدة من بلاد الشام .. ووجد نفسه ينسى مكانته تمامًا ، ويترك نفسه على سجيتها متى كان معها ، فراح يبدو وكأنه طفل سعيد بهدية زمانه له .. وراح يغمرها بحبه وحنانه ، ويملأ حياتها ضحكًا وبهجة بخفة ظله ، ويهدهدها ويدللها وكأنها طفلته المدللة ، وكان فعلاً يناديها بـ « طفلتى الساحرة » ..

بينما المحبوبة الرقيقة مأخوذة بهذا الفيض الوردى من الحب المغمور بالبراءة وخفة الدم والحيوية .. ووجدت المحبوبة

الجميلة نفسها تخرج من دوامة أحزانها ، وتستسلم لسحر هذا العاشق اللذيذ .. ويا له من إحساس لذيذ تحسه الأنثى حين تجد نفسها تطأ جنة الحب بقلب بكر طال اشتياقه للحب .

وتزوج وسيم مصر الكهل بفاتنة الشام فى حفل أسطورى .. وكان زواجهما حديث الساعة .. ومن حفل العرس إلى جزر « هاواى » حيث راح العروسان العاشقان ينهلان من العسل بشراهة مجنونة ..

وبدوا معًا وكأنهما يحلمان حلمًا رائعًا يصعب تصديقه .. ولكن آه ، وألف آه من خبيئة القدر .. فى لحظة تحول الحلم الرائع إلى كابوس مروع .. كابوس جعل الجنة تتحول فى لحظة إلى جهنم مستعرة ..

سقط العريس العاشق ميتًا بين يدى عروسه قبل أن يتما شهر العسل .. اختطفه الموت خطفة الصقر لفريسته .. وصرع الذهول العروس .. وظلت مصروعة بالذهول وهى تعود بحبيبها النبيل فى صندوق خشبى .. ثم وهى تلقى عليه نظرة الوداع ، ثم وهى تواريه الثرى ، ثم وهى تعود إلى قصرها ، وتدخله وحيدة مفجوعة القلب ، ذاهلة العقل لتعيش من هذه اللحظة ، وعلى مدى أكثر من خمسة عشر

عامًا على ذكرى الحبيب النبيل .. ومثلمـا كـان الرجل نبيـلاً فى حبه وفى عشرته ، كانت عروسه نبيلة فى حزنهـا علـى فراقه .. فبادرت برد الجميل له فى مثواه بأن خلدت ذكراه فى روايتين ضخمتين ، ورغم مـا بذلتـه مـن جهد جبار فـى الروايتين إلا أنـه ظل يملؤهـا شـعور قـوى بأنهـا لـم توفـه حقه .. وظل هذا الإحساس يلَح عليها بأن الرجل ما زال لـه دين فى رقبتهـا .. بل إن هـذا الديـن تديـن بـه لمصـر كلهـا باعتبارها الأم العظيمة الذى أنجبت هذا الرجل النبيل ، ومـن هنا نبت بداخلها السؤال الذى أجهدها كثيرًا : « من أين لهـا بالسبيل الذى يمكنّها من رد الجميل للرجل وبلده ؟ » ولـم يهدأ السؤال بداخلها يومًا ، بل راح يزداد إلحاحًا مع الأيام ، حتى ساقت لها الأقدار مأسـاة (حسنية) ، وفوجئت بالمسكينة تتوسل إليها أن تتبنى طفلها .. لحظتها أدركت أن هذا ليس مطلب (حسنية) ، بل السبيل الذى طال البحث عنه إلـى رد الجميل لحبيبها الراحل وبلده الكريم .. وعندما أدركت هـذا فُتح قلبها على الفور للطفل ، وامتلأت فرحة به ، وعقدت النية على أن تهبه نفسها وحياتها وأموالها ، وكل مـا تملك ، داعيـة اللـه أن يعمّر قلبه بحبها ، وأن يجعل منـه ابنـا بـارًا لها .. ومـن هنا كان احتضانها له بأمومة فياضة ، وتجلّى ذلك بوضوح منذ

اليوم التالى لاستلامها له ، حيث تحول القصر إلى مؤسـسة متكاملـة قائمـة علـى خدمتـه : متخصصـون فـى نظافتـه وهندمته .. مربون علـى أعلـى مستوى لتطهيره مـن آثـار بيئتـه القـادم منهـا ، وتهيئتــه لحيـاة القصــور ، مدرسـون متخصصـون لإعـداده للالتحـاق بمـدارس « الجـوزويـت » الفرنسية .. كانت توجيهات الهانم للجميع صريحة وقاطعة : أن يتم ذلك كله دون إرهاق للطفل ، فراحوا جميعًا يغمرونـه بـالحب والحنـان ، بينمـا الطفل يتلقّى كل هذا بوقـار يسبق سنه ، وذكـاء أذهل الجميع ، وأسعد الهانم نفسـها سعادة لاتوصــف ، وزادها حبًا وتعلقًا به ، وبدا الطفل بسلوكه هذا ، وكأنه يدرك هول المسافة الفاصلة بين حياة الزرائب المنحطة القـادم منهـا وبيـن هـذه الحيـاة الخياليـة التـى تشبه حيـاة الأسـاطير فـى الحواديت التى كانت ترويها له أمه الحبيبة (حسنية) قبـل النوم ..

وبين أحضان الهانم ، وتفانى كوكبـة المربين والمدرسين ، وتفانى الخدم مضت الأيام بـ (خليفة) حتـى وجد نفسه يدخل مدرسة « الجوزويت » طفلاً جميـلاً راقيًا ، يهفو القلـب لبهائـه ورقيه .. ووجد العشرات من عيون التلاميذ والمدرسين تسـتقبله بانبهار وهو ينزل من سيارته « المرسيدس » ، بينمـا سـائقه

الخاص ينحنى له فى إجلال وتعظيم ، وكأنه ملك صغير .. وسُمع تلميذ يسأل زميله فى انبهار : « من يكون هذا الملك الصغير ؟ » .. وجاءته الإجابة : (منير عز الدين) ابن الوزير الراحل (عز الدين محيى) والأديبة (دولت بشار) !!

★ ★ ★



الفصل الرابع

مضت السنون بـ (منير عز الدين) ناعمة مخملية ، وإن ظلت فى سمائها سحابة قاتمة خلّفها رحيل أمه الحبيبة (حسنية) قبل أن ينهى عامه الدراسى الأول .. حينذاك لم يشعر بثقل الصدمة وذبحة الفراق ؛ لأنه كان قد تعود غياب الحبيبة الراحلة عنه لفترات طويلة .. فقد كانت تتعمد التباعد بين زياراتها له فى القصر كى تعوّده على الابتعاد عنها ، فيكون فراقها له هيناً حين تحين لحظتها .. وهو ما نجحت فيه بالفعل ، فلم يصرعه خبر وفاتها كما يحدث للأطفال المقاربين له فى السن .. ولكن حزنه الهادئ هذا لم يدم له طويلاً .. فما إن بلغ المرحلة الثانوية فى دراسته ، واكتمل وعيه ونضج مشاعره حتى انفجر فى قلبه حزن فاجع على رحيلها .. وكان مبعث حزنه الحقيقى هو أن هذه الأم المسكينة تجرعت كأس العذاب والمر حتى الثمالة ، ولم يمهلها القدر حتى يشب هو ، ويداويها من هذا العذاب ، ويعوضها عنه .. وبهذا الحزن الدفين على أمه الحبيبة الراحلة (حسنية) ، الممزوج بأسمى مشاعر العرفان والامتنان لأمه العظيمة (دولت) هانم

مضى الفتى فى حياته الأرستقراطية ، وهو يزداد جدية ووجاهة ونبوغًا ، حتى اجتاز بوابة الجامعة الأمريكية .. دخلها بثقة فى النفس ووقار أضفيا عليه هالة ساحرة جعلته يخطف الأبصار والأفئدة منذ أول يوم له فى الجامعة ..

كان الفتى آية فى الجمال .. وجه بيضاوى أبيض مشرب بحمرة خفيفة ، يعلوه شعر بنى غزير ناعم ممشط إلى الخلف وكأنه تاج من الحرير ، وأنف دقيق ، وفم دقيق .. باختصار كان جميلاً رغم حزنه الذى لا يفارقه .. وكان أنيقًا أناقة نجوم السينما .. وبوسامته هذه ، وأناقته ، ونسبه ، ونبوغه ، وأدبه الجم .. بكل هذا صار خلال شهور قليلة نجمًا ساطعًا فى سماء جامعة أولاد الأكابر .. وراحت جميلات الجامعة يتطلعن إليه بقلوب خافقة تهفو إلى الفوز به .. وراحت كل منهن تحاول جذب نظره إليها بطريقتها الخاصة .. والجامحات منهن رحن يبذلن أقصى ما بوسعهن للإيقاع به .. كل هذا والفتى فى شأن آخر .. إنه لا يرى فى الجامعة سوى دراسته ، ولا يبغى منها سوى شهادة التخرج بأعلى تقدير يستطيعه .. إنها الهدية الذى عاهد نفسه على إهدائها لوالدتيه الحبيبتين (حسنية) و(دولت) هانم .. وهو فى سبيل ذلك وضع لنفسه برنامجًا يوميًا صارمًا فرضه على نفسه منذ

أول يوم له فى الجامعة .. فى الجامعة حضور المحاضرات كاملة ، يليها ساعتان فى المكتبة للقراءة العامة ، ويختتم يومه الجامعى بساعة فى ملعب التنس يزاول لعبته التى يعشقها .. أما فى القصر ، فتناول الغداء والنوم لمدة ساعتين عقب عودته من الجامعة مباشرة ، ثم ست ساعات مذاكرة ، يليها تناول العشاء مع الهانم ، ثم اجتماع رائع بين الاثنين فى مكتب الهانم يتحاوران فيه فى أى موضوع يطرح نفسه عليهما .. ثقافى أو اجتماعى أو سياسى .. وقد يمتد اجتماعهما لما يقرب من الساعة ، يضع فى نهايته الفتى الرائع قبلة حميمة على يد أمه الهانم ، ثم يمضى إلى فراشه ، بينما تظل الهانم فى مكتبها حيث تبدأ خلوتها اليومية مع القلم كأديبة عظيمة ، ينتظر إبداعها آلاف القراء على امتداد الوطن العربى .

وهكذا مضى الفتى فى حياته المرسومة غير منتبه لنظرات الإعجاب التى تلاحقه أينما مضى ، وكأنه يعيش فى دنيا خالية عليه ، لا يشاركه فيها سوى الهانم .. حتى رفع عينيه ذات يوم عن كتاب يقرؤه فى مكتبة الجامعة ، ليُفاجأ بفتنة خالصة تقف على قدمين فى مدخل المكتبة ، وقد ثبتت عينيها عليه بجرأة عجيبة تفصح عن ثقة وشقاوة صاحبتها ..

كانت هيفاء العود ، تشع فتنة من كافة تضاريسها .. قمرية الوجه ، وكأنها البدر فى تمامه .. وكانت ملامحها آية فى الجمال ، وأجمل ما فيها عيناها الواسعتان الخضراوان الساطعتان وكأنهما بلورتان من الزيتون المصفّى ، وقفت الفتاة فى مكانها تتأمله بجرأتها المدهشة ، وكأنها تتأمل مانيكان فى فاترينة عرض ، بينما الفتى ينظر إليها حائرًا متسائلاً ، وهو فى داخله مبهورًا بجمالها .. وتقدمت هى منه حتى وقفت أمامه تسأله ، وهى تنظر فى عينيه مباشرة ، وكأنها تتعمد غرس سهامها الفاتنة فيهما :

ـ ألم تفرغ منه بعد ؟

ـ ما هو يا مودموزيل ؟

ـ هذا الكتاب الذى فى يدك ، هذا ثالث يوم آتى لأجله وأجدك مستعيره .

أسرع يطوى الكتاب ، ونهض يناوله لها :

ـ أنا آسف .

ـ أنا لم أطلبه منك ، أنا سألتك عما إذا كنت فرغت من قراءته .

ـ عندى نسخة منه فى المنزل .

ـ طبعًا .. مكتبة الأديبة (دولت بشار) لا يمكن أن تخلو من كتاب كهذا .

ابتسم فى ود :

ـ حضرتك تعرفيننى ؟

ـ من ذا الذى لا يعرف الوسيم ابن أديبة العرب ؟

أجابها بامتنان :

ـ شرف كبير لى أن تعرفنى (رنا) هانم ابنة (عبد الفتاح باشا عزمى) .

ـ حضرتك تعرفنى ؟

ـ من ذا الذى لا يعرف ملكة جمال الجامعة الأمريكية ، وابنة أقوى وزراء مصر ؟

انطلقت منها ضحكة إطراء كتغريدة الكروان ، وهمس هو كأنه يحدث نفسه :

ـ الله ! ما أروعها !

ـ ما هى ؟

- ضحكتك ، سيمفونية لو سمعها «بيتّهوفن» لسجلها باسمه .

- أنت مجامل لذيذ .

- وحضرتك قمر ١٤ .

حلّقت بنظراتها المبتهجة على وجهه ، أخذتها وسامته وعذوبة ملامحه ، طالعتها فى وجهه رومانسية ساحرة ، وفى عينيه حزن ثقيل يعلن عن احتلاله لقلبه .. خفق قلبها .. وإذا بها مشدودة إليه ، تريد أن تأخذه بسرعة فى حضنها .. كادت تفعلها ، لولا أنها أفاقت لنفسها بسرعة .. أسرعت تقول له ، بابتسامة مرتعشة لم تخف توترها :

- عن إذنك ، عندى محاضرة .

واستدارت منصرفة دون أن تأخذ منه الكتاب ، ودون أن تمنحه فرصة ليقول شيئًا ، بينما ظل هو واقفًا فى مكانه ، يشيعها بنظرات دهشة ، ولم يستطع الجلوس إلى طاولة القراءة مرة أخرى .. جمع مذكراته ، وانصرف هو الآخر .. لم يتجه إلى قاعة المحاضرات .. فقد شعر برغبة فى الاختلاء بنفسه ، أدار محرك سيارته « الدايو » ، وخرج بها من الجامعة قاصدًا القصر .. مضى

فى شوارع «جاردن سيتى» وهو لايكاد يرى أمامه سوى تلك الفاتنة المشاكسة بشقاوتها اللذيذة ، ومداعباتها الجريئة له .. تعجّب لارتباكها الذى جعلها تسارع بالانصراف فجأة من أمامه .. وفجأة انتبه على صوت إطارات السيارة وهى تصرخ فوق الأسفلت من شدة الفرملة .. لم يدر كيف ضغط دواسة الفرامل بهذه السرعة والقوة ، ولكنه اكتشف أنه صدم عربة قمامة صدمة خفيفة .. ولولا سرعة فرملته لكان قد دهس العربة بالحمار الذى يجرها والزبال الذى يقودها ..

وقفز من السيارة مذعورًا ليرى آثار فعلته ، فإذا به فى مواجهة زبال شاب فارع الطول ، قوى البنية ، ذى ملامح قاسية ، وهيئة غبراء ، وكأنه مارد خرج لتوه من باطن الأرض ، وقف يحدّق فى قائد السيارة الشاب بنظرات مخيفة تطفح بالغضب ، وقد بدا واضحًا عليه ، أنه لولا خوفه من مركزه لحطم ضلوعه ، ولكنه لم يستطع أن يكبح جماح غضبه للنهاية ، زمجر مغتاظًا وهو يحدق فى وجه (منير) بنظراته النارية :

- طبعًا ، كثرة المال فى أيديكم جعلتكم لاترون أمامكم :

وأجابه (منير) فى أدب :

ـ أنا آسف ..

وأسرع بإخراج حافظته ، وأخرج كل ما بها من نقود ، وهو يسأله :

ـ ما التلفيات فى عربتك ؟

ـ وهل صارت عربة ؟ سيادتك مزقتها .

قالها الزبال وهو يختطف النقود كلها من يد (منير) ، فالتفت الأخير إلى العربة مندهشًا ، فلم يكن بها تلفيات تُذكر ، وهم بأن يقول شيئًا ، ولكنه أمسك فجأة عن الكلام ، وراح يتفرس وجه الزبال الشاب بنظرات فاحصة متسائلة ، جعلت الزبال يسأله متعجبًا :

ـ خير يا باشا ؟

وإذا بـ (منير) يسأله :

ـ أأنت (سعيد) ؟!

وأجابه الزبال بدهشة :

ـ نعم ، أنا (سعيد) .

ـ (سعيد أبو الغيط) ؟!

ـ نعم يا باشا .. حضرتك تعرفنى ؟

وإذا بوقاحة الزبال الشاب تختفى ، ويحل محلها شىء من الحرج ، وهو يسأله :

ـ سيادتك زبون عندى ؟

ولكن (منير) لم يجبه ، ظل يحدق فيه بدهشة عاصفة لبرهة ، راح بعدها يتراجع بظهره نحو سيارته حتى ركبها .. وبسرعة أدار محركها ، ومضى بها دون أن يرفع عينيه عن الزبال الشاب ، بينما (سعيد) يتعجب لأمره حتى اختفى بسيارته عن ناظريه ، فقفز فوق عربته ، ومضى هو الآخر ، وما إن فعل حتى وجد وجه الباشا الشاب يتراقص أمام عينيه ، ووجد نفسه يردد فى داخله :

ـ هذا الوجه ليس غريبًا عنى .. به شىء ليس غريبًا عنى .. العينان !

نعم العينان ! هاتان العينان مألوفتان جدًّا لدىَّ !

أين رأيتهما ؟

أين ؟!

وفجأة هتف كالمجنون :

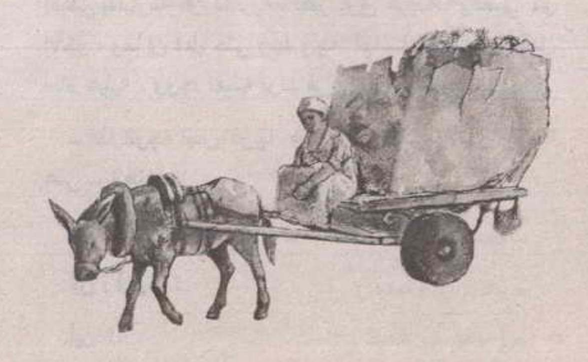
ـ مستحيل ! مستحيل ! (خليفة) ؟!

ابن (حسنية) ؟!

وإذا به يهوى بعصاه الغليظة فوق الحمار ، صارخًا فيه :

ـ قف يا غبى يا بن الغبى .

* * *



الفصل الخامس

بدا (منير) فى زى التنس الأبيض ، وهو يركض خلف الكرة بمضربه فى أنحاء الملعب الأحضر ، وكأنه غزال برى يختال برشاقته وقوته ، وبدا واضحًا من طريقة لعبه ، وعنف ضرباته أنه يقاتل بشراسة فى سبيل الفوز ببطولة الجامعات فى التنس .. وبالفعل انتهت المباراة بفوزه على منافسه فوزًا ساحقًا ، وسط تصفيق حار من الجمهور الغفير فى الملعب ، وراح يرد تحية جمهوره فى فرحة وحب ، ثم مضى نحو المنصة المعدة لتكريم البطل ، وصعدها ليتقلد وسام البطولة من وزير الشباب والرياضة وللمرة الثانية ارتج الملعب بتصفيق وصفير وهياج الجمهور .. وللمرة الثانية راح البطل يرد تحية جمهوره الحبيب .. وإذا بـ (رنا) تقبل عليه متقدمة شلة من جميلات الجامعة ، وتلبسه إكليلاً من الزهور ، وتطبع على وجنتيه قبلتين رقيقتين ، هامسة فى أذنه :

ـ مبروك يا غزال الجامعة الأمريكية .

ووجد الفتى نفسه ينظر فى عينى الفتاة المدهشة ، فإذا به ينظر فى بحر مسحور تموج فيه شقاوة كل البشر وخفة دمهم ، وكاد البحر المسحور يبتلعه ، لولا أنه سارع بانتشال نفسه منه مراعاةً لمهنئيه المحيطين به ، وابتسم مجيبًا تحيتها :

ـ مرسيه مودموزيل (رنا) .

ـ أنا فى انتظارك فى « الموفنبيك » .

قالتها ، ومضت كالمهرة المنطلقة ، فانطلقت نظراته المندهشة خلفها ، ولم يفقه من دهشته سوى مصافحة أحد المهنئين له بحرارة .. ووجد نفسه يستأذن مهنئيه ، ويمضى إلى حجرة الملابس .. ولم يستغرق استبداله لثيابه سوى دقائق ، مضى بعدها إلى سيارته ، وانطلق بها إلى الفندق الرائع المرتفع فوق ضفة النيل حيث استقبلته الفتاة المدهشة بنظراتها الجريئة المشاكسة ، وبابتسامتها التى لا تقل شقاوة وسحرًا عن نظراتها ، وبادرته مرحبة مداعبة :

ـ أهلاً بأمير الوسامة والرومانسية .

وابتسم معلقًا :

ـ غزال الجامعة الأمريكية .. أمير الوسامة .. أمير الرومانسية .. أليس هذا كثيرًا يا أميرة الشقاوة ؟!

ـ خلعت عليك ثلاثة ألقاب ، ومنحتنى لقبًا واحدًا .. يا لكرمك !

ـ أمر طبيعى أن تكون الحكومة أكرم من رعاياها ..

ـ الحكومة ؟! وما شأنى أنا بالحكومة ؟!

ـ ألست ابنة أقوى وزير فى الحكومة ؟

ـ آه .. مولاى ، يسعدنى أن أنبه معاليكم إلى أننى لست حكومية ولست معارضة .. أنا مستقلة .

ـ وأنا (منير عز الدين) .

انطلقت ضحكتها رغمًا عنها ، ضحكة طويلة مغردة ، جعلت وجهها يتوهج احمرارًا مثل ثمرة تفاح ناضجة .. وجاء « الجرسون » بكوكتيل الفواكه الذى طلباه ، وما إن انصرف حتى سألها (منير) متعجبًا :

ـ هل كانت قفشتى مضحكة إلى هذا الحد ؟

ـ قفشتك لم تضحكنى ، أضحكتنى المفاجأة .

ـ أية مفاجأة ؟

تأملته بنظرة حانية طويلة ، ثم أجابته :

ـ منذ أن وقعت عيناى عليك فى الجامعة العام الماضى ، لم أر على وجهك ابتسامة واحدة ، كنا دائمًا نراك حزينًا واجمًا ، حتى أطلقنا عليك : « النورس الحزين » ، ثم ها أنا الآن أفاجأ بـ « النورس الحزين » يهرج مثلنا ، ودمه أخف من دم (عادل إمام) .

غمغم فى مرارة ، وقد ارتدت إليه طبيعته الحزينة :

ـ مرة من نفسى .

ـ ولماذا مرة ؟! لماذا أنت حزين دائمًا هكذا ؟

ـ مشيئة ربنا .

ـ مشيئة ربنا ؟! الله لم يشأ الحزن أبدًا لأحد من خلقه .

ـ لماذا خلقه إذن ؟

ـ من هو ؟

ـ الحزن .

ـ لم يخلقه وحده ، خلق معه الفرح ، تمامًا مثلما خلق الشر مع الخير ، والحرام مع الحلال ، وعلى العاقل أن يختار بينهما .

ـ لا أحد يتمنى لنفسه التعاسة يا مودموزيل (رنـا) .

ـ أتسمح لى بسؤال أيها « النورس الحزين » ؟

ـ تفضلى ..

ـ لو حدث أن هبط عليك ضيف ثقيل ، وعلمت أن بقاءه سيؤذيك ، وقد يدمر حياتك ، فهل من الحكمة أن تستبقيه ؟

ـ لا طبعًا .

ـ هكذا الحزن ، ليس من الحكمة أبدًا أن نستبقيه معنا .

بلغت الرسالة عقل وقلب « النورس الحزين » .. تتطلع إلى الفتاة الفاتنة بدهشة :

ـ أنت إنسانة عجيبة يا مودموزيل (رنـا) .

ـ مزاحى المتواصل ، وطريقتى فى الحياة لا يوحيان أبدًا بأنى أفكر بهذه الطريقة ، أليس هذا هو ما يدهشك ؟

ـ نعم ..

ـ لو فكرت قليلاً لاكتشفت أن المهرجين هم أعقل الناس .

وجد نفسه يتأملها بإعجاب :

ـ أنا معجب بك يا فاتنة الجامعة الأمريكية .

أجابته من خلال ضحكة حلوة :

ـ وأنا مفتونة بك أيها « النورس الجميل » ، ولن أتنازل عنك .. قم معى !

وإذا بالفتاة تنطلق به فى سيارتها الإسبور الحمراء ، فلم يملك إلا أن يسألها مبتسمًا :

ـ هل لى الحق فى السؤال عن وجهتنا ؟

وأجابته بخفة ظلها :

ـ لحظات وستعرف يا باشا .

لحظات وفوجئ بالسيارة تجتاز بوابة قصر أمه الهانم ، والفتاة تهبط منها ، ثم تتأبطه قائلة :

ـ امنحنى هذا الشرف يا (منير) بك .

ومضت به إلى داخل القصر ، وفوجئت بها (دولت) هانم ، وغمرتها فرحة طاغية وهى تعانقها مرحبة :

ـ معقول ؟! وردة (عبد الفتاح باشا عزمى) فى بيتى ؟

وأجابتها الفتاة فى تبجيل :

ـ إنه لشرف كبير لى أنا يا (دولت) هانم .

والتفتت الهانم بفرحتها إلى (منير) قائلة :

ـ هذه أروع هدية أتيتنى بها فى حياتك يا فتى .

ومال الابن البار على يد أمه يقبلها بامتنان .. وهمت الهانم بأن تدعوهما إلى الجلوس ، فإذا بالفتاة تقول لها :

ـ (دولت) هانم ، جئت لأستأذن حضرتك فى دعوة هذا الفتى إلى سهرة معى الليلة فقط .

أجابتها الهانم فى بشاشة :

ـ مودموزيل (رنا) تأمر لا تستأذن ..

ـ العفو يا (دولت) هانم .

والتفتت الفتاة إلى (منير) قائلة :

ـ (منير) بك : سأمر عليك فى التاسعة لنخرج معًا .

التفت (منير) إلى أمه فأومأت له بالإيجاب فى رضا ، فعاد ينظر إلى الفتاة قائلاً :

ـ تحت أمرك يا سيدتى .

وعادت (رنـا) تستأذن الهانم فى الانصراف ، وأوصلها الفتى حتى سيارتها ، وبادرتـه هى قائلة وهى تجلس أمام مقود السيارة :

ـ الآن عرفـت مـن أين أتيـت بسحرك هـذا يـا ساحر الفتيات .

سألها باسمًا :

ـ من أين يا سيدتى ؟

ـ وهل هناك سواها .. أمك الهانم ..

قالتها ومضت بسيارتها دون أن تسمع الفتـى يغمغم فـى حزن :

ـ بل وأمى (حسنية) يا فتاة ..

* * *

فـى التاسـعة مسـاءً كـان المسئولون عن مسـرح الفـن يسـارعون باستقبال ابنـة الوزيـر (عبـد الفتـاح عزمـى) بمجرد علمهم بوصولها إلـى المسرح .. اسـتقبلوها هــى وفتاهـا بحفـاوة بالغـة ، وقادوهمـا إلـى « الفوتيـه لـوج » ..

ومـا هـى إلا دقـائق حتـى بـدأ العرض المسـرحى ، لتنطلـق الضحكات فى أنحاء القاعة ، وليضحك (منير) مـن قلبـه .. أكثر من ثلاث ساعات وهو يضحـك ويضحـك بعد حرمـان مضنى مـن الضحك لأكثـر مـن خمسـة عشر عامًا .. وحين بلغ العرض نهايته ، وخرج الفتى مع صديقتـه الرائعة إلـى الشارع ، وجد نفسه يشعر وكأن الشمس سطعت فـى قلبـه من بعد غيوم وضباب ظن أنهما لن ينقشعا أبدًا ..

* * *

وعاد الفتى إلى القصر بقلب مبتهج ، ووجه مضىء يسطع بالسعادة .. قطع على الهانم خلوتها الليلية مع القلم فى مكتبهـا .. حياها ومـال علـى يدهـا يقبلهـا ، ثـم جلس أمامهـا يريد أن يقول لها الكثير ، ويسألها عن الكثير ، ولكنـه لا يعرف مـن أين يبدأ .. أربكتّه فرحته ، وأشفقت عليـه الهـانم ، وراحـت تحلق بنظراتها الباسمة علـى وجهـه ، وخفـق قلبهـا لجمـال الفتى وقد أظهرته كاملاً أنوار السعادة التى سطعت فيه ، ثـم ما لبثت أن بادرته هى قائلة بلهجتها الرصينة :

ـ لم أكن أعلم أنك خطـير إلـى هـذا الحد يـا فتـى .. ابنـة (عبد الفتاح عزمى) مرة واحدة ؟!

وإذا بالفتى يجيبها بدهشة مصطنعة :

ـ وهل يوجد منها على دفعات يا سيدتى ؟

وضحكت الهانم من قلبها لأول مرة منذ سنوات طويلة ، ثم عادت ترددها فى إعجاب :

ـ ابنة (عبد الفتاح عزمى) ؟!

وأجابها الفتى فى شموخ :

ـ ومن يكون (عبد الفتاح عزمى) بجوارك يا أديبة العرب ؟

ـ الوزير الذى لا تخلو وسيلة إعلام من أخباره .

تأملها الفتى بإعجاب لبرهة ، ثم أجابها قائلاً :

ـ يا سيدتى ، الوزير موجود فى أذهان الناس ما دام هو فى مقعده ، أما الأديب فهو مخلد فى أذهان الناس وفى قلوبهم إلى يوم القيامة .

لمعت عينا الهانم إعجابًا ، وانتبهت له قائلة :

ـ ما كل هذا يا فتى ؟! الليلة مفاجآتك كثيرة .. وسامة فوق العادة ، وخفة ظل ، وفلسفة رائعة .. ماذا وراء كل هذا ؟ هيا احكى .. هيا .

وعاد الفتى يمازحها :

ـ أنا أحكى ، وحضرتك تكتبين ، إذن فأنا شريك حضرتك فى الرواية القادمة .

ـ أنا كلى مكلك أيها الفتى الرائع .

أخذ يدها وقبلها بامتنان :

ـ العفو يا أعظم أم فى العالم ، أنا الذى ملكك ورهن إشارتك .

ـ إذن هيا احكى .

ـ المشكلة يا حضرة الأديبة العظيمة أنه ليس عندى الكثير الذى أحكيه .. هذه الفتاة قابلتنى مرتين لا أكثر .. فى الأولى طلبت منى كتاب ، وفى الثانية هنأتنى بالبطولة ودعتنى إلى سهرة معها .

ابتسمت الهانم :

ـ هذه بداية طيبة .

ـ بداية ماذا ؟

أجابته فى مكر :

ـ بداية للرواية التى ستشاركنى فيها .

وضحك الاثنان ، وإذا بالتليفون المحمول الخاص بالفتى يرن ، وأسرع يجيب :

ـ ألـو ..

ثم رمى الهانم بغمزة شقاوة من طرف عينه ، وهو يقول :

ـ أهلاً مودموزيل (رنـا) .

وجاء صوت الفتاة مغردًا ككروان الفجر :

ـ أولاً : « مودموزيل » هذه دمها ثقيل حبتين .. ليتك ترفعها من الخدمة .

ـ وثانيًا ؟

ـ ثانيًا : « النورس الجميل » مدعو إلى العشاء معنا فى قصرنا غدًا .

سألها الفتى مندهشًا :

ـ معكم ؟! مع من تقصدين ؟

ـ معى أنا وبابا وماما .

هتف الفتى مذهولاً :

ـ ماذا ؟!

ـ ما سمعته يا محظوظ زمانك ، وغير مسموح بالاعتذار .. تصبح على خير .

وأغلق الخط من جانب الفتاة ، بينما التفت الفتى إلى أمه مبهوتًا !

★ ★ ★

فى السابعة مساءً كان (منير) يهبط سلم القصر وكأنه البدر يتهادى من فـوق عرشـه .. كـانت حلتـه الإيطاليـة السوداء المجسمة عليه بقميصها الأبيض الناصع ورباط عنقه الحريرى الأخضر آية فى الشياكة .. وكـان وجهه المتورد أكثر توردًا ووسامة تحت شعره البنى الغزير الناعم .. وكان سحره وجاذبيته يفوقـان الوصـف .. ومـا إن وقعت عليـه عينـا الهـانم وهـى تجلس فى البهو الكبير ، حتى هتفت من فورها :

ـ ما شاء الله !

ووقفت تتلقاه بين يديها ، وراحت تتأمله مفتونة بـه ، ثم قالت وهى تعانقه بعينيها :

ـ حبيبى ، أنت حلم رائع .

ومال الفتى على يد أمه يقبلها قائلاً :

ـ دعواتك يا ماما ..

ودعت له الهانم ، ثم إذ بها تقول له فى عزم وشموخ :

ـ اسمع يا فتى ، إذا كانت فتاتك الجميلة ابنة وزير فـأنت ابن وزير راحل ، وابن أديبة .. أنت خير من يعرف قدرها .

وبلغت الرسالة الفتى ، ولكنه أطرق مغمغمًا فى حزن :

ـ وابن (سلامة) و(حسنية) .

ثم رفع وجهـه مرة أخرى إلى أمه ، وقد استعاد بشاشـته ، وقال فى صدق :

ـ كم أنا محظوظ يا ماما .. كل إنسـان لـه أب واحد وأم واحدة ، وأنا لى من الآباء اثنان ومن الأمهات اثنتان ..

ولم تملك الهانم إلا أن تضم ابنها فى حضنها ، قائلـة لـه فى تأثر وإجلال :

ـ يا لك من ابن بار .

ثم إذ بها تستعيد بشاشتها هى الأخرى ، وتقول له :

ـ هيا يا فتى ..فاتنتك الآن تعد الثوانى لوصولك .. هيا .

ـ أمرك يا ماما .

وللمرة الثانية قبل الفتى يد أمه ، واستدار منصرفـًا قـاصدًا سيارته ، ولكنه ما إن خرج إلى فناء القصر حتى فوجئ بسـائق الهانم يفتح الباب الخلفى لسيارة الهانم « المرسـيدس العيون » ، ويدعوه إلى الركوب .. والتفت الفتى إلى أمه الهانم الواقفـة فى « الفراندة » ، فإذا بها تومئ له بالركوب ، فابتسم الفتى لهـا ممتنًا وقد بلغته رسالتها الثانيـة .. فقد أرادت لـه أن يدخل قصر (عبد الفتاح عزمى) كملك شاب ، تمامًا كما دخل مدرسـة « الجوزويت » قبل سنوات طويلة كملك صغير ..

ومضت السيارة بالفتى .. وما هى إلا دقائق حتى كانت تجتاز بوابة قصر (عبد الفتاح عزمى) ، ليجد فاتنته فى اسـتقباله أمام الباب الداخلى للقصر .. استقبلته مفتونةً ببهائـه ووسـامته وسحره .. وهمست له بكلمة غـزل جعلت ابتسـامته تشـرق فى وجهه كشمس الربيع ، وأسرعت تقوده إلى داخـل القصـر ، ليجد نفسـه وجهًا لوجـه مع الوزير الذى طالما شاهد صوره ، وقـرأ عنـه ، وسمعه فـى وسـائل الإعـلام ، والـذى تضـرب هيبته فى أركان المجتمع .. ها هو يجده واقفًا فـى استقباله يرحب به بحرارة ، وأبوّة حانية ، وابتسامة دافئة جميلة ..

وفوجئ به الفتى رجلاً بشوشًا ودودًا طيب القلب ، بعكس الصـورة التى رسـمتها له وسـائل الإعـلام ، وبعكس زوجتـه

(درية) هانم المعجونة بالعنجهية والغطرسة ، وقد بدا ذلك واضحًا من الابتسامة الصفراء التى ظهرت على وجهها وهى تصافح (منير) ، والتى عالجتها (رنا) بفرحتها الحميمة بضيفها وهى تقدمه لوالديها .. وكان واضحًا أن هذا الاستقبال الملوكى للضيف الشاب هو استجابة لرغبة الفتاة الرائعة .. وكان واضحًا أنها تحتل فى قلبى والديها أرفع مكانة يمكن أن تنالها ابنة فى قلبى والديها .. وكان واضحًا أن والدها يشاركها فرحتها بالضيف الشاب ، صافحه بحرارة ، وهو يقول له :

ـ أهلاً بابن الصديق الغالى ..

وفوجئ (منير) ، ثم دعاه الوزير إلى الجلوس ، فجلس الجميع وأشعل الوزير سيجارًا ، ثم أردف قائلاً :

ـ (عز الدين) باشا الله يرحمه كان صديقًا عزيزًا لى منذ دراستنا فى مدرسة « السعيدية » .

ضرب الارتباك الفتى ، وتطلع إلى الوزير متحيرًا ، ولكنه سرعان ما انتشل نفسه من ارتباكه وحيرته ، وأجاب الوزير قائلاً :

ـ الله يرحمه يا باشا .

وإذا بـ (درية) هانم تقول :

ـ الحقيقة يا أستاذ (منير) أننا فوجئنا بأن (عز الدين) باشا و(دولت) هانم لهما ابن ؛ لأنه مضى وقت طويل بعد وفاة (عز الدين) باشا دون أن نسمع بإنجاب (دولت) هانم .

ضربة أخرى تلقّاها الفتى ، ولكنها لم تربكه هذه المرة ، بل أصابته بالضيق من سماجة السيدة ، ولم يجد ردًا يسعفه ، ولكن الوزير الطيب أسعفه بالإجابة بالنيابة عنه :

ـ يا (درية) هانم .. حضرتك نسيتى أننا سافرنا إلى « روما » عقب وفاة (عز الدين) باشا مباشرة لاستلام عملى كسفير لمصر هناك ، وأقمنا هناك لأكثر من عشر سنوات ..

وكان رد الهانم بنفس سماجتها :

ـ آه .. عندك حق يا باشا ..

والتفتت إلى (منير) بابتسامتها الصفراء ، وقالت :

ـ أنا آسفة يا أستاذ (منير) .. يبدو أننى نسيت ..

وأجابها (منير) ، وقد رطبت صدره طيبة الوزير :

ـ لا عليكِ يا هانم .

وتدخلت (رنـا) بشقاوتها المبهجة :

ـ ويبدو أيضًا أننى جعت .

وجاء كبير الخدم يخبرهم بأن المأدبة جاهزة، فنهضوا جميعًا متوجهين إلى قاعة الطعام .. وراحوا يتناولون عشاءهم فى جو بهيج بفضل بشاشة الوزير، وخفة ظل (رنـا) .. وما إن فرغوا من عشائهم حتى استأذنهم الوزير فى الانصراف إلى مكتبه، فى حين مضت (درية) هانم إلى جناحها بعد استئذان الضيف الشاب، فأسرعت (رنـا) تدعو ضيفها إلى نزهة فى حديقة القصر ..

كانت الحديقة فسيحة مترامية الأطراف، وكانت عبارة عن بساط أخضر من العشب القصير ساطع الخضرة، يشطره ممر من بلاط الحدائق الفاخرة المغسول، وقد تحدد كل شطر بسور من شجيرات الورد المتلاصقة على شكل قلب كبير، فبدا الممر وكأنه يمر بين قلبين كبيرين خاليين ينتظران من يسكنهما .. وفى أرجاء الحديقة كانت تتوزع بشكل هندسى جميل، أعمدة إنارة حديثة تشع بنور أبيض قمرى، وفى أقصى الحديقة من اليمين كان حمام السباحة المستدير بحوافه الذهبية ساكنًا تمامًا، وقد انعكست الأضواء البيضاء المنبعثة من أعمدة الإنارة التى تحفه على مياهه الشفافة،

فبدا وكأنه حوض ضخم من الفضة المشعة، باختصار لم تكن مجرد حديقة مألوفة، بل تحفة فنية رومانسية رائعة، خاصة فى هذه الليلة الصيفية المقمرة، حتى إن الفتى بمجرد أن خطا فيها بضع خطوات مع فتاته، وملأ عينيه بتفاصيلها، لم يملك إلا أن يهتف مفتونًا :

ـ ما أروعها !

وأجابته (رنـا) وهى تمر بنظراتها الحالمة على شجيرات الورد :

ـ إنها جنتى .. كل وردة من هذه الورود أودعتها سرًا، وحلمًا، وعتابًا ..

والتفت (منير) إلى حمام السباحة، وسألها :

ـ وهذا الحمّام الجميل ؟

ـ الوحيد الذى أستأمنه على كنوز أنوثتى .

خفق قلب الفتى .. حلّق بنظراته على وجهها وقد غمره ضوء القمر المكتمل فوقهما فى عليائه، فإذا به وجه ملاك يشع جمالاً راقيًا، ويقطر رقة وعذوبة .. ازداد قلبه خفقانًا .. مد أصابعه يرفع خصلة شعر تطايرت فوق عينيها ..

همست له وقد أذابتها لمسته :

ـ ألا تخشى غيرته ؟

سألها هامسًا :

ـ من هو ؟

رنت بعينيها إلى القمر :

ـ قمرى الذى يحرسنى .

ـ قمرك الآن يسلمك لى .. يأخذ علىّ العهد بأن أحبك حبًا أخلد من العمر ، ومن الدهر ذاته .

خفق قلبها بشدة .. هتفت بصوت مكتوم :

ـ مـاذا ؟

ـ نعم يا فرحة القلب الذى طال انتظارها .. كل خليـة فى جسدى الآن .. كل نبضة فى عروقى وفى قلبى .. كل شعاع نـور فى عينى .. كل ذرة عقل .. كل ومضـة روح .. كلهـا .. كلها توقع الآن لقمرك إقرارًا بحبك وإسعادك إلى الأبد .

ذابت أوصال الفتاة .. كادت تتهاوى فى حضنـه .. هتفت مستغيثة :

ـ (منير) ؟!

ـ أجيبى قمرك حبيبك يا فاتنة القلب .. هل تقبليننى حبيبًا لك ؟

وإذا بالفتاة الملائكية راقية الحسن ترددها بكل جوارحها :

ـ أقبلك .. أقبلـك .. أقبلـك .. بقلبـى ، بعقلـى ، بروحـى ، بكل ذرة فى كيانى أقبلك أيها « النورس الجميل » ..

★ ★ ★

وعاد « النورس الجميل » ..

عاد محمولاً فوق جناحى طائر الحب ..

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة ليلاً .. وكانت الشوارع ما بين قصـر الوزير فـى « المنصوريـة » وقصـر (دولـت) هـانم فـى « جـاردن سيتى » تفـوح برومانسـية وشـاعرية ترطـب القلـب .. ومضـت فيهـا السـيارة الفخمـة تحمـل « النورس الجميل » ، وقد فاح فيه عبير جنة مـن المشـاعر

الحلوة .. ذلك العبير الذى يفوح فى وجدان كل عاشق وهو يخطو أولى خطواته فى جنة الحب .. كانت الحبيبة بجمالها الراقى ، وشقاوتها ، ولذتها ، وكلماتها ، وهمساتها ، ورومانسيتها التى غمرته بها الليلة تحلّق أمامه فى جنة الحب التى فُتحت له الليلة ، وكان هو يطير خلفها بكل مشاعره البكر ، طيران العاشق الملهوف الذى لايصدق نفسه .. كانت أمامه تملأ عليه الكون تحليقًا ، وتشاغل كل حواسه بفرحتها وشقاوتها وبراءتها ، فما عاد يرى أو يسمع سواها .. حتى إنه لم ينتبه إلى أنه بلغ القصر ..

توقفت السيارة أمام البوابة حتى يفتحها الحارس .. وإذا برأس غبراء تميل على « النورس » فى النافذة الخلفية ، وصاحبها يقول له ببرود :

ـ مساء الخير يا (منير) باشا .

ألجمت المفاجأة (منير) وهو يحدق فى وجه محدثه ، بينما أردف محدثه بنفس بروده :

ـ ماذا يا باشا ؟ ألا ترد التحية ؟

استعاد (منير) رباطة جأشه ، أجابه بدون ارتياح :

ـ أهلاً (سعيد) ..

تظاهر (سعيد) بتنفس الصعداء ، ابتسم ابتسامة كريهة مثل هيئته ، ثم قال :

ـ شىء جميل يا باشا إنك تتذكرنى بعد هذا العمر الطويل .

تأمل (منير) وجهه مليًا ، ثم أجابه بكل مرارة الذكرى :

ـ كيف أنساك يا بن (عنتر) ؟

ومرة أخرى تظاهر الفتى الأغبر بالأسى .. أجابه قائلاً :

ـ (عنتر) الله يرحمه يا باشا ، مات من سنين .

لم يبال (منير) ، سأله فى قرف :

ـ خير يا (سعيد) ! ماذا تريد ؟

ـ لا شىء يا باشا .. اشتهت نفسى رؤيتك ، والحمد لله إن رغبتى تحققت .

كان الحارس قد فتح بوابة القصر ، وأقبل على (منير) ، وفوجئ بهذا الأغبر الذى يميل عليه فى السيارة ، فأسرع يطمئن على سيده :

ـ خير يا (منير) بك ؟

وأجابه (منير) :

ـ لا شىء يا (خليل) .

ثم أخرج بعض النقود من جيبه ، وناولها لـ (سعيد) كاظمًا قرفه ، وهو يقول :

ـ خذ يا (سعيد) ..

خطف (سعيد) النقود من يد (منير) ، وهو يقول له بوقاحة :

ـ شكرًا لهذه المنحة الأخوية يا (منير) بك ..

طفح الاشمئزاز على وجه (منير) ، وانتفضت لديه حاسة الاستشعار .. حدجه بنظرة متفرسة محاولاً سبر غوره .. وإذا بـ (سعيد) يعتدل واقفًا مشيرًا له بالانصراف :

ـ تفضل يا باشا .. ليلتك ورد ..

حدجه (منير) بنظرة أخيرة تطفح قرفًا ، ثم أمر السائق بالتحرك ففعل ، ومضى الحارس خلف السيارة ، وأغلق البوابة ، بينما ألقى (سعيد) نظرة استخفاف على النقود ، ثم مضى فى جوف الظلام ..

* * *



الفصل السادس

انطلق اليخت صوب جزيرة «دهب» التى تتوسط البحر الأحمر قبالة شاطئ «الغردقة» .. كان اليخت بفخامته يشبه قصرًا صغيرًا .. وكانت (رنا) تقف فى مقدمته بتيشرتها الأخضر الفضفاض الذى يتطاير مع الهواء وشورتها الأصفر الضيق تشير لـ(منير) الذى يقف بجوارها إلى الجزيرة الخالية التى ظهرت بعيدًا .. وأرسل (منير) بصره إلى الجزيرة النائية من تحت الكاب الذى يغطى رأسه .. وأدهشه منظر الجزيرة العجيبة .. فقد بدت تحت أشعة الشمس المتوهجة وكأنها قرص مستدير من الذهب الخالص يطفو فوق الماء ، وهتف مبهورًا :

ـ يا لسحرها !

وقالت (رنا) وهى تتشبث بها ببصرها فى فرحة طفولية :

ـ إنها تبدو وكأنها تنتظرنا ، وتعاتبنا لتأخرنا عليها .

والتفت إليها (منير) ، قائلاً لها وهو يعانقها بعينيه :

ـ كل الأماكن التى تغزلين فيها قصة حبنا رائعة مثلك يا حبيبتى ، حديقة قصرك .. يختك .. هذه الجزيرة الرائعة ..

أجابته الفتاة بشقاوتها اللذيذة :

ـ يا فتى ، القصر ملك الوزير (عبد الفتاح عزمى) ، واليخت مستأجر ، والجزيرة ملك الدولة .. أما أنا فلا أملك لك سوى قلبى الصغير الذى يعبدك .

أجابها وهو يحلّق بنظراته على وجهها الجميل :

ـ قلبك هذا هو الجنة بعينها يا حبيبة القلب .

منحته عينيها العذبتين يسبح فيهما ، وهى تقول له :

ـ وأنا أهديك مفتاح هذه الجنة يا معبودى الوسيم .

وتعانقت عيون الحبيبين ، ورفرف قلباهما ، وبلغ اليخت الفخم الجزيرة الذهبية ، وقفز الحبيبان إليها فى فرحة طفولية .. ووقف (منير) وسطها يدير بصره فى أنحاء البحر الساطع تحت الشمس المتوهجة مفتونًا بالجمال

والخلاء ، واللوحة الذهبية المطروحة من حوله على امتداد البصر ، بينما انطلقت (رنا) تعد مأدبة من السمك المشوى ، ولم يستغرق الأمر فى يدها أكثر من نصف ساعة ، وقفت بعدها بين يدى حبيبها تدعوه إلى المأدبة ، قائلة :

ـ مولاى ومعبودى الوسيم : حبيبتك وخادمتك تدعوك إلى وليمة بحرية متواضعة .

وأخذها حبيبها بين يديه ، وراح يتأملها مفتونًا بجمالها ورقتها ورقيّها ، ثم رفع يدها وطبع عليها قبلة أودع فيها كل مشاعره الجياشة ، ثم جلس معها إلى المائدة المستديرة تحت المظلة الملونة ، وهم بأن يبدأ فى تناول طعامه ، ولكن الحبيبة سارعت بمنعه هامسة :

ـ يد حبيبتك هى التى ستطعمك . وراحت تطعمه فى حب وحنان ، وكأنها تطعم طفلها الجميل ، بينما هو مستسلمًا لها ، سابحًا فى عينيها ، وكأنه يسبح فى حلم وردى يتمنى ألا ينتهى أبدًا ..

وشبع الحبيبان من صنوف السمك الشهى ، وهتف (منير) بتلقائية :

ـ كولا .. أطفئينى بعلبة «كولا» بسرعة ..

وأدركته الحبيبة بعلبة «كولا» مثلجة ، ثم أخذته من يده قائلة :

ـ هيا بنا ..

ـ إلى أين ؟

أشارت بيدها إلى البحر :

ـ ألا تسمع نداءه ؟ هذا البحر الجميل ينادينا .

ونهض معها الفتى ، وفى لحظات كانا يقفزان معًا فى البحر ، وانطلقا يسبحان فيه ، وهما يتضاحكان ويتداعبان حتى ضربهما الإرهاق ، فخرجا إلى الجزيرة مرة أخرى ، واستلقيا فوقها .. وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب ، ووقفت ببوابة عرشها الغربى ، تلملم أشعتها فى جوفها تأهبًا للخطوة الأخيرة فى رحلتها اليومية الأزلية ، فتحولت إلى قرص أحمر بللورى يضىء الأفق بحمرته القانية الساحرة ، وبدت فى وقفتها وكأنها تلقى على الحبيبين تحية الوداع .. وانتبه إليها الحبيبان وهما يجلسان قبالتها فوق

أرض الجزيرة .. كانت (رنـا) الجميلـة تلقـى برأسـها فـوق صدر حبيبها ، وكان (منير) يجـوس بأصابعـه الرقيقـة فـى شعرها الحريرى وهو يرسل نظراته إلـى الأفـق حيث تقـف الشمس فى انتظار تحيتهما .. وحينما انتبه إليها الحبيبـان ، أسرع « النورس الجميل » يـأخذ بوجـه حبيبتـه بيـن يديـه ، وراح يسبح بنظراتـه الحالمـة فـى عينيهـا الجميلتين حتـى ارتوى منهما ، ثم قال بصوته الحالم :

ـ حبيبتى ، لقد منحت قمرك ميثاقًا أبديًا بحبك وإسعادك ، وها هى الشمس الجميلة تطالبنى بنفس الميثاق .

ـ وهل ستمنحه لها ؟

ـ سأمنحه لها ، وسأقسم عليه بعمرى .

وخفق قلب الفتاة الملائكية لهذا النبع الجارف من الحب الذى انفجر فى قلب حبيبها ، وفاض من كافة جوارحه بدون توقف ..

★ ★ ★

زغردت الفرحـة فى قلـب (دولت) هانم وهى تصغى إلى وصف ابنها لرحلته مع حبيبته ، وسطعت عيناها بالفرحـة

وهى تتطلع إليه بنظراتها فى إعجاب حتى فرغ من وصفه ، فسألته :

ـ وما معنى هذا كله يا فتى ؟

داعبها « النورس الجميل » بابتسامته الحلوة ، وهو يقول :

ـ أنا الذى أريـد أن أعـرف من حضرتك معنى هذا أيتهـا الأديبة العظيمة ..

وداعبته هى الأخرى :

ـ يا لك من مراوغ يا فتى .

ـ ما عاش من يراوغك يا ملكة الفكر والحب .

ـ إذن اعترف !

ـ بماذا ؟

ـ بأنك تحبها .

أشرق الحـب بكـل أنواره وألوانه فى عينى « النورس » ، فهتفت الهانم :

ـ عيناك أشجع منك يا فتى .

لم يجد الفتى بدًا من الاعتراف :

ـ نعم يا ماما العظيمة الجميلة .. أحبها .

ـ وهى ؟

منعه تواضعه من الإجابة ، فأجابت هى بالنيابة عنه :

ـ تحبك أكثر مما تحبها أنت .

ـ من أدراك يا ملكة الأمهات والأديبات ؟

ـ سلوكها معك من ناحية ، وحاسة المرأة من ناحية أخرى .. أم تراك نسيت أننى امرأة يا فتى ؟

هتف بسرعة :

ـ ماما ، أنت أجمل امرأة فى هذا الكون ، وأقسم على ذلك .

ابتسمت فى إطراء ، وأخذت بوجهه بين يديها ، وقالت بإعجاب :

ـ وأنت أجمل نورس فى سماء هذا الكون يا فتى .

وأخذت بيده ، وأجلسته بجوارها بكنبة الصالون الفرنسية ، ثم سألته :

ـ وما هى خطوتك القادمة أيها الفتى الساحر ؟

تلاشت بشاشة الفتى ، وحلت محلها سحابة قاتمة من الحيرة والقلق ، فأسرعت الهانم تسأله بانزعاج :

ـ ماذا يا فتى ؟

ـ إنها ابنة (عبد الفتاح عزمى) يا ماما .

انتفض كبرياء الهانم كله دفعة واحدة ، وهتفت غاضبة محتجة :

ـ وأنت ابن (عز الدين محيى) و (دولت بشار) يا فتى ..

تنبه الفتى إلى زلته ، وجزع لغضبة أمه .. أسرع يقبّل يدها معتذرًا ، وهو يقول :

ـ آسف يا ماما .. لم أقصد ..

ـ لو أن قلبك اختار ابنة رئيس الوزراء لخطبتها لك فورًا ، ويكون ذلك شرف لعائلتها .

ـ طبعًا يا ماما .. طبعًا .

ومال على يد أمه يقبلها مرة أخرى ، وعادت الابتسامة تضىء وجه الهانم ، وعادت إليها بشاشتها الحلوة ، وما لبثت أن قالت :

- امتحانات البكالوريوس الشهر القادم .. عليك أنت بالحصول عليه بتفوق ، وعلىّ أنا إهداؤك وردة (عبد الفتاح عزمى) ، ويمكنك اعتبارها زوجتك فور ظهور النتيجة .. وهذا وعد منى بذلك ..

انفجرت كل ينابيع الفرحة دفعة واحدة فى قلب الفتى .. هتف غير مصدق :

- ماما ؟!

- انهض يا فتى إلى مذاكرتك ، ولا تشغل نفسك بسواها حتى تفرغ من امتحاناتك .. هيا .

ولم يملك الفتى إلا إطاعة الأمر ، فأسرع يقبّل يد أمه العظيمة للمرة الثالثة ، ثم مضى إلى حجرته .. وما كاد يفعل حتى كانت الهانم تطلب (عبد الفتاح عزمى) تليفونيًّا وتوجه له الدعوة لزيارتها مع أسرته فى قصرها .. وإذا بالرجل يجيبها على الفور بالموافقة ، بل ويشكرها كل الشكر لدعوتها الكريمة ..

وجاء الرجل بزوجته وابنته فى الموعد المحدد .. جاء بتواضعه الجميل وبشاشته وطيبته .. ولم يصدق (منير) نفسه

وهو يستقبل الوزير الشهير وعائلته فى قصر أمه .. لقد أرادت (دولت) هانم أن تطمئن ابنها الحبيب إلى قدرتها المطلقة على الوفاء بوعدها له .. وبلغت رسالة الأم العظيمة ابنها .. وبدا يوم استضافة الوزير الطيب وعائلته كيوم عيد غمر الجميع ببهجته .. وفوجئت (دولت) هانم ببساطة الرجل الذى يملأ الأسماع والأبصار .. فقد بدا على سجيته تمامًا ، وكأنه نحّى سطوته وهيبته جانبًا بمجرد دخوله قصر الهانم ، أو تركها خارج بوابة القصر احترامًا لسيدته .. وراح الوزير الطيب يروى للجميع ذكريات شبابه ، مع صديقه الراحل (عز الدين محيى) ، وما كانا يمارسانه معًا من شقاوة وطيش شباب .. وضحك الجميع كثيرًا لنوادره وقفشاته .. وبدا من فرط طيبته وكأنه أب حنون للجميع ، ومضى يغمرهم بأبوته وحنانه وبهجته بلا حدود ، فى حين راحت (دولت) هانم تبذل أقصى طاقتها للاحتفاء بضيفها الكبير وعائلته ، حتى انتهت الزيارة ، وانصرف الوزير وعائلته ، وقد تعلقت قلوبهم بهذه السيدة الطيبة وابنها البار ..

★ ★ ★

شهور معدودة وكان الحبيبان يتلقيان التهانى بحصولهما على البكالوريوس .. (منير) بامتياز مع مرتبة الشرف ،

و (رنا) بدرجة جيد جدًا .. فما كان من (دولت) هانم إلا أنها سارعت بالوفاء بوعدها للنورس الرائع .. صحبته إلى قصر (عبد الفتاح عزمى) .. وجلست قبالة الوزير وزوجته تطلب منهما يد ابنتهما (رنا) لابنها .. طلبتها بثقة فى النفس متناهية وشموخ رائع جعلا الوزير نفسه يتهيبها .. وكان رده عليها بطيبة وبشاشة :

ـ هذا شرف كبير لنا يا (دولت) هانم .

وكان رد (درية) هانم :

ـ الأستاذ (منير) ابن باشا عظيم وأديبة عظيمة .. وهذا يكفيه حسبًا ونسبًا .

وابتسمت (دولت) هانم فى رضا وسعادة ، والتفتت إلى العروس قائلة فى أمومة وحنان آسر :

ـ وماذا عن رأى أجمل عروسة فى مصر ؟

ولم تنطق العروسة الجميلة .. أطرقت خجلاً وقد اكتسى وجهها بحمرة ساحرة زادتها حسنًا فاتنًا فوق حسنها .. وابتسمت (دولت) هانم إشفاقًا عليها ، وعادت تدعوها للإفصاح عن رأيها :

ـ مودموزيل (رنا) ..

ورفعت الفتاة وجهها تجاه الحبيب الساحر ، فاحتضنها الفتى بعينيه فى لهفة .. وتعلقت عيون الاثنين ببعضها فى وصلة حب ومناجاة وفرحة ، حتى أفاقهما صوت الوزير الحنون مستدعيًا ابنته من جنة حبيبها :

ـ حبيبة بابا ؟!

وإذا بالفتاة الملائكية تلبى دعوة باباها الحبيب فورًا ، وتسارع بطبع قبلة اعتذار فوق خده ، ثم تقول له :

ـ الرأى لك يا بابا .

وانبثقت الفرحة فى قلوب الجميع ، وغمرتهم بغير حساب فكاد « النورس الجميل » يقفز واقفًا من فرحته بينما رقص قلب (دولت) هانم من الفرحة ، أما الوزير الطيب فقد عانق (منير) بابتسامة تفيض أبوة وحنانًا ، وهو يقول له :

ـ مبروك يا بن الناس الطيبين .

وأجابه الفتى فى امتنان صادق :

ـ شكرًا يا باشا .. وأرجو أن أكون خليقًا بصنيعك .

أما (درية) هانم فلم تتخل عن ابتسامتها الصفراء وهى تهنئه :

ـ مبروك يا أستاذ (منير) .

وأجابها الفتى فى حب وامتنان :

ـ شكرًا يا (درية) هانم .. قبولك لنسبى وسام من حضرتك على صدرى .

وفاح شىء من الإطراء فى ابتسامة حرم الوزير ، وأجابته :

ـ شكرًا يا أستاذ (منير) .

وجاء كبير الخدم بصينية شربات كبيرة ووزعها عليهم .. ولم تشرق شمس الصباح إلا وخبر خطبة ابنة الوزير (عبد الفتاح عزمى) لنجل الوزير الراحل (عز الدين محيى) والأديبة (دولت بشار) يحتل مكانًا بارزًا فى كافة الصحف والمجلات .

★ ★ ★

بدت (رنا) كالفراشة المحمومة بالفرحة ، وهى تمضى بخطيبها الوسيم فى طرقات نادى «الجزيرة» .. كانت تقبض على ذراعه بذراعيها الاثنتين ، وكأنها تخشى أن يأخذه منها مجهول .. وكان هو يعانق وجهها الجميل الضاحك بنظراته الساطعة بالفرحة ، وبابتسامته الحلوة التى تفوق شمس الربيع إشراقًا وجمالاً .. وكانا لا يخطوان خطوة فى طرقات النادى إلا ويتلقيان تهنئة حارة بخطبتهما .. وبلغت (رنا) بخطيبها شلتها المجتمعة حول طاولة كبيرة فى كافتيريا النادى .. واستقبل أفراد الشلة جميعهم العروسين بالتهانى الحارة ، وأحاطوا بهما فى فرحة غامرة ، وجلسوا جميعًا بفرحتهم .. ولكن «النورس الجميل» ما لبث أن مال على أذن عروسه هامسًا لها بأمرٍ ما ، فإذا بها تجيبه بحرارة ، وبصوت مسموع :

ـ كما تشاء يا حبيبى .. أنت هنا الملك ، ونحن جميعًا رعاياك وملك أمرك .

وإذا بالشلة جميعها شباب وفتيات يهتفون على الفور فى فرحة :

ـ يعيش الملك .. يعيش .. يعيش .. يعيش .

وعادت (رنا) تقول للشلة :

ـ الملك يدعونا إلى نزهة نيلية على الباخرة « سكارابيه » ..

وعاد الجميع يهتفون :

ـ يعيش الملك .. يعيش .. يعيش .. يعيش .

ونهض الملك قائلاً :

ـ إذن هيا بنا .

وانطلق الجميع قاصدين نهر النيل سيرًا على الأقدام ، يتقدمهم « النورس الجميل » وحبيبته الفاتنة ، ولكنهم ما إن خرجوا من بوابة النادى حتى فوجئوا جميعًا بالنورس يتسمر فى مكانه ، وعيناه تتسمران على شاب أغبر بشع الهيئة فى صدمة ذهبت على الفور بابتسامته وفرحته ونور وجهه .. وقف الفتى يحدق فى (سعيد) مصدومًا ، بينما المخلوق الأغبر ينظر فى عينيه مباشرة بنظرات ثلجية متحدية ، أما (رنا) وشلتها فقد وقفوا هم الآخرون يقلبون أبصارهم بين « النورس الجميل » و « المخلوق الأغبر » فى دهشة ، وبالطبع كانت دهشة (رنا) تفوق دهشتهم جميعًا ، حتى إنها لم تستطع كبتها ، فالتفتت إلى فتاها تسأله :

ـ ما الأمر يا حبيبى ؟!

وأفاق الفتى من صدمته ، وتنبه إلى خطئه الفادح بنسيانه لنفسه ولصحبته ، وأسرع يعالج الموقف بابتسامة شوهها التوتر ، وهو يجيب فتاته :

ـ لا شىء يا حبيبتى .. لا شىء .

واسترد انتباهه أكثر ، وهتف فى الشلة مبتسمًا :

ـ لماذا توقفتم ؟ هيا بنا .

وعاد يستأنف سيره بحبيبته وشلتها ، وهو يجاهد توتره وغيظه ، تاركًا (سعيد) خلفه واقفًا فى مكانه بنظراته الثلجية الغامضة ..

فى تلك الليلة لم يغمض لـ (منير) جفن .. ظل طوال الليل شاخص البصر وهو ممدد على ظهره فى فراشه ، بينما (سعيد) ماثل أمامه بهيئته البشعة ونظراته الثلجية الغامضة ، فى حين انطلقت الأفكار والتساؤلات تتناحر فى رأسه كأسماك مفترسة جامحة : هل كان تواجد (سعيد) أمام النادى اليوم صدفة أم عمدًا ؟ وإذا سلم بأنه صدفة ، فهل كان تواجده أمام القصر منذ عدة أيام ــ وبعد منتصف

الليل ـ صدفة أيضًا ؟ مستحيل أن يكون الأمر فى المرتين صدفة .. (سعيد) كان ينتظره اليوم أمام النادى .. ولكن لماذا ؟ وكيف علم بوجوده فى النادى ؟ هل كان يراقبه ؟ وإذا كان يفعل ، فماذا يريد منه ؟ ولماذا ظهر له الآن بعد كل هذه السنوات ؟ وماذا يريد ؟ ماذا يريد ؟

واستشاطت رأس الفتى من هياج التفكير ، وشدة الحيرة ، وكاد يقفز من فراشه فرارًا من هذا الجحيم الذى اشتعل فى رأسه .. وإذا بباب الغرفة يُفتح ، و (دولت) هانم تدخل بعد أن فوجئت بأنوار الغرفة مضاءة فى هذا الوقت المتأخر على غير العادة .. وحينما دخلتها فوجئت بابنها ممددًا فى فراشه تمدد الأموات ، فأسرعت تناديه فى جزع :

ـ (منير) ؟!

اعتدل الفتى جالسًا فى فراشه :

ـ مساء الخير يا ماما .

جلست بجواره على حافة الفراش .. فوجئت بشحوب وجهه ، سألته بانزعاج :

ـ حبيبى ، ما الأمر ؟

ابتسم الفتى محاولاً حجب ما به :

ـ لا شىء يا ماما .

ـ كيف لا شىء يا فتى ؟ سهرك حتى هذه الساعة ، وهذا الاختناق البادى على وجهك يفصحان عن هم عظيم .

أجابها الفتى بنفس ابتسامته المرهقة :

ـ لا يا ماما ، ليس هناك أى هم ، كل ما فى الأمر أن النوم خاصمنى الليلة .. يبدو أنه غاضب منى لسبب أجهله .

اطمأنت الهانم بعض الشىء .. أخذت بوجهه بين يديها فى حنو ، وداعبته بلهجتها الراقية العذبة :

ـ لا شىء فى الوجود يغضب من « النورس الجميل » .

ـ فعلها النوم يا ماما .

تأملته الهانم بحنان الأم وفطنتها لبرهة ، ثم عادت تسأله :

ـ حبيبى : ماذا يقلقك ؟ ألسنا صديقين ؟

ـ بلى يا ماما .

ـ إذن هيا أخبر صديقتك بالذى يشغل بالك ، وسرق النوم من عينيك هكذا ..

كانت كلماتها وطريقتها تفيض عذوبة ورقة ، حتى إن الفتى شعر وكأن نسمات رطبة هبت على نفسه وأعصابه فرطبتها وأطفأت سهادها المضنى .. ووجد نفسه يتأملها مليًا فى حب ، وإذا بشىء من البهجة يسرى فى وجدانه لحسنها .. كانت رغم تجاوزها الستين من عمرها تحتفظ ببريق عينيها الزرقاوتين ، ونضارة وجهها الوردى ، وابتسامة بنت العشرين ، ووجد نفسه يبتسم إعجابًا ، ويهمس لها :

ـ حضرتك جميلة جدًا يا ماما .

ابتسمت فى إطراء ، ثم عادت تسأله :

ـ هل هذا هروب شيك من سؤالى يا فتى ؟

وكان رد « النورس الجميل » وهو ما زال يتأملها بإعجاب :

ـ لا يا ماما .. حضرتك جميلة حقًا .

ـ مرسيه يا حبيبى .. هيا صارحنى بسبب أرقك هذا .

كان الفتى قد هدأ تمامًا ، فداعبها قائلاً :

ـ يبدو أنها أعراض الحب أيتها الأم الفاتنة .

هدأت هواجس الهانم تمامًا .. داعبته قائلة :

ـ إذا كان الأمر كذلك فلك العذر يا فتى .

ـ هو ذاك يا ماما الجميلة .

عادت الهانم تتأمله بإعجاب لبرهة ، ثم قالت :

ـ آه لو تعلم كم أنا معجبة بك لإيقاعك بهذه الفتاة تحديدًا يا فتى .

ـ لماذا ؟

ـ لأنها فتاة فوق العادة .. جمال ، وأدب ، وعلم .. وفوق ذلك كله أصل عريق .. فتاة حلم بكل المقاييس .

ـ وماذا كنت تتوقعين من ابن الأديبة العظيمة (دولت بشار) ؟

ـ أتوقع منه أن يعجّل بالزفاف .

ـ هناك خطوة لا بد منها قبل ذلك يا ماما .

ـ تقصد العمل ؟

ـ نعم .

ـ وهل كنت تتوقع منى أن يفوتنى أمر كهذا ؟

تطلع إليها الفتى متسائلاً بنظراته ، فلم تتأخر عليه بالإجابة :

ـ والدك (عز الدين) باشا ـ الله يرحمه ـ كان يملك مكتبًا فى شارع (شريف) ، وكان يستخدمه كمقر انتخابى له .. وهذا المكتب ما زال موجودًا .. ومن ناحية أخرى الحاج (عبد الحميد) ناظر العزبة هو الذى كان مسئولاً عن بيع محاصيلها ، ولكنه تقدم فى السن ، وتكالبت عليه أمراض الشيخوخة ، وقد طلب منى الشهر الماضى تسوية معاشه .

ـ عفوًا يا ماما .. حتى الآن لا أفهم مقصد حضرتك .

ـ ماذا لو افتتحت أنت مكتب بابا كشركة لتوريد الحاصلات الزراعية على أن تبدأ بحاصلات عزبتك .

قنبلة .. قنبلة من المشاعر الحلوة العطرة انفجرت فى كيان « النورس الجميل » ، فأطاحت على الفور بحكاية (سعيد أبو الغيط) وبغاضتها ، وغمرته بأحلى مشاعر الانبهار والحب والإجلال .. ولم يكن عرض الهانم هو القنبلة ، بل كان بلوغها هذه القمة الشاهقة من الأمومة والعظمة هو القنبلة الحقيقية .. تطلع إليها الفتى بكل دهشته وانبهاره وهو يسألها :

ـ من أين أتيت حضرتك بهذه الفكرة ؟

وكان رد الهانم بوقارها الجميل :

ـ السؤال الأهم يا فتى ، هو لماذا فكرت فيها ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنه من المتوقع جدًا أن يعرض عليك (عبد الفتاح عزمى) تدبير وظيفة لك بنفوذه ، وأنا لا أرغب أبدًا أن يكون دائنًا لك بفضل كهذا حتى تظل قامتك مرفوعة أمام عروسك .

وبلغ انبهار الفتى بأمه ذروته .. عانقها بعينيه قائلاً :

ـ يا لك من أم عظيمة ! كيف أوفيك حقك ؟

ـ بأن تبدأ فورًا باستلام عزبتك ، وافتتاح شركتك .

وهتف الفتى :

ـ فورًا يا ماما .. فورًا .

ومال على يدها يقبلها بكل امتنان وتبجيل ، وحينما رفع وجهه قالت له الهانم ، بكل حنانها :

ـ والآن .. هيا أغمض عينيك واشبع نومًا .

وطبعت قبلة حانية على خده ، ثم نهضت قائلة :

ـ تصبح على خير أيها « النورس الجميل » .

ـ وحضرتك من أهله يا ماما ..

واستدارت الهانم مغادرة الغرفة ، بينما الابن البار يشيعها بنظرات تفيض حبًا ، حتى إذا ما أغلقت باب الغرفة خلفها ، همت صورة (سعيد أبو الغيط) بأن تقفز أمام عينيه ، فسارع بإطفاء النور ، وسحب غطاءه فوقه عازمًا على النوم ..

★ ★ ★

ونام « النورس الجميل » .. نام بعمق ، ولم يوقظه من نومه سوى رنين تليفونه المحمول بعد العصر ، وما إن رد حتى دبت فيه الفرحة .. كانت حبيبته على الطرف الآخر تهتف فيه :

ـ أما زلت نائمًا أيها « النورس الكسلان » ؟

وأجابها مبتهجًا :

ـ صباح الجمال أيتها اليمامة الفاتنة .

ـ بل قل « مساء الجمال » ، الساعة الآن تقارب الخامسة مساءً .

ـ آسف يا مولاتى ، أين أنت الآن ؟

ـ فى حديقتى ، أشكوك لورودى .

ـ وما جنايتى يا مولاتى ؟

ـ تأخرك علىّ .. أمامك نصف ساعة وتكون عندى .

ـ أمرك أيتها الملكة الفاتنة .

وبسرعة البرق ألقى « النورس الجميل » بالتليفون جانبًا ، وقفز من فراشه كالنحلة ، وفى دقائق كان يخرج بسيارته من بوابة القصر ، ولكنه ما إن فعل حتى ضغط « دواسة الفرامل » ضغطة شلت حركة السيارة تمامًا فى مكانها .. وإذا به يقفز من السيارة كالمجنون ، وينطلق جريًا صوب (سعيد) الذى كان يقف قبالة القصر كتمثال أغبر ، ولم يتوقف (منير) إلا وهو يقبض على عنقه فى عصبية مجنونة صارخًا فيه :

ـ ها أنا أمامك أيها الغراب ، أخبرنى بما تريده منى .. أخبرنى دون أن تحرق دمى بخلقتك البشعة أينما ذهبت .. ماذا تريد ؟ ماذا ؟

وبدا (منير) وكأنه فقد سيطرته على نفسه تمامًا من هول غضبه ، بينما الفتى الأغبر لم تهتز له عضلة واحدة فى وجهه .. بدا كتمثال من قاذورات الأرض وهو ينزل يدى (منير) عنه ، ويبتسم فى برود قائلاً :

ـ اهدأ يا (منير) بك .. أولاد الأصول لا يتصرفون هكذا ..

ولكن من أين بالهدوء للفتى الذى فقد صبره .. عاد يصرخ غيظًا فى الفتى الأغبر :

ـ قلت لك أخبرنى بما تريد .

وأجابه (سعيد) ببروده الاستفزازى :

ـ أريدك أن تهدأ يا باشا ..

ـ لا شأن لك بى .. تكلم عن نفسك .. ماذا تريد ؟

ـ أريدك أن تمنحنى شرف الحديث إليك لبضع دقائق .

لم يهدأ غضب (منير) .. ظل يحدق فيه بغيظ هائل ، ثم ما لبث أن راح يفكر فى خيارين : إما أن يستدعى حراس القصر ، ويأمرهم بأن يوسعوه ضربًا أو يأمرهم بالقبض عليه وتسليمه إلى البوليس .. وإذا بالفتى الأغبر يقول له :

ـ فى الحالتين يا (منير) بك ستضر بنفسك بما ستثيره من علامات استفهام حول علاقتك بى ، وبما ستسببه للهانم من ضيق وقلق ..

وأسقط فى يد (منير) ، وإذا بالفتى الداهية يكمل عليه بقوله :

ـ هيا يا باشا .. هيا ننصرف من هنا قبل أن تطل الهانم من شرفتها ، أو تخرج فترانا معًا .

ارتج (منير) ، وطغى غيظه وهو يحدق فيه فى حيرة وتردد ، فعاد الشيطان يستحثه :

ـ هيا يا باشا .

ووجد (منير) نفسه يتحرك معه إلى السيارة فى استسلام .. وركب الشيطان الأغبر بجواره .. ومضى (منير) به .. شىء ما فى عقله جعله يمضى إلى طريق (الفيوم الصحراوى) ، ثم إذ به ينحرف بالسيارة يمينًا ، ويتوغل فى الصحراء الخاوية المترامية الأطراف ، حتى اختفى الطريق خلفه ، وصار يتوسط الخلاء المريع .. فتوقف بالسيارة .. كل ذلك والشيطان الأغبر ساكن تمامًا بجواره

فى استرخاء وبرود عجيبين .. والتفت (منير) نحوه يتفرسه بعينين جامدتين تغليان بالغضب والسخط والقرف ، وإذا برفيقه البغيض يسأله بنفس استرخائه وبروده ، ودون أن يلتفت إليه :

ـ ماذا يا باشا ؟ هل خطر لك أن تأتى بى إلى هنا لتتخلص منى دون أن يراك أحد ؟

تسمرت عينا (منير) عليه فى غيظ ودهشة .. هذا المقزز الذى يشبه المكنسة القش يقرأ أفكاره وكأنه يقرأ فى كتاب مفتوح .. من أين له بهذا الذكاء ؟ انتشل نفسه من دهشته ، وسأله فى قرف :

ـ ماذا تريد يا (سعيد) ؟

ـ نصف ملكك ؟

قالها الفتى المقزز بتلقائية وبنفس بروده ، وكان رد (منير) عليه فى غيظ مكظوم :

ـ يا لوقاحتك يا غراب الزرائب ، وأيضًا تهرج معى ؟!

ـ عفوًا يا باشا ، أنا لا أهرج مع حضرتك .. أنا فى منتهى الجدية .

أمسك (منير) نفسه عن الانفجار .. خرجت منه الكلمات مشحونة بغيظ لا يطاق وهو يقول له :

ـ اسمع أيها الغراب ، إذا لم تخبرنى فورًا بما تريده فسوف أتركك هنا ، وأعود أدراجى ، وإذا ما حدث وسقطت عيناى عليك بعد ذلك فسوف أقذف بك داخل السجن بتهمة لا تحتملها ، وثق فى قدرتى على ذلك .

وكأن (منير) كان يتحدث إلى نفسه ، لم تختلج عضلة واحدة فى وجه الفتى المقزز ، بل حدج (منير) بنظرة لا مبالاة ، ثم أخرج من جيب قميصه القذر سيجارة متهالكة ، وأشعلها بنفس بروده ، وإذا به يأخذ منها نفسًا طويلاً ثم ينفث الدخان فى وجه (منير) بقلة ذوق مجنونة ، ثم يقول :

ـ عفوًا يا (منير) بك .. كنت أعتقد أنك أذكى من ذلك .. ففكرة تركك لى هنا فكرة ساذجة ، لن يمكنك تنفيذها ، وذلك لأننى ببساطة لن أغادر هذه السيارة الجميلة إلا قاتلاً أو مقتولاً .. أما عن مسألة سجنى فأنا أعتقد أنك أعقل كثيرًا من أن تفعلها ، وذلك لأنك ببساطة أيضًا سوف تدفع ثمنها غاليًا .

ردد (منير) ساخرًا :

ـ ثمنها ؟!

ـ نعم يا باشا .

ـ وما هو ثمنها هذا ؟

ـ تدميرك .

صعق (منير) :

ـ ماذا ؟!

ـ كما سمعت يا باشا .. سأدمرك قبل أن أدخل زنزانتى .

ـ أنت ؟!

ـ نعم أنا يابن (حسنية) ، و (سلامة) ، وحوش (مسعدة) ..

جبل ضخم تصدع وتهاوى فوق رأس (منير) .. ضربه التهديد المميت فى عقله ، فأفقده القدرة على التفكير .. لم يدر ماذا يقول أو يفعل .. راح يحدق فى الفتى الأغبر وهو عاجز عن النطق ، فنطق الشيطان :

ـ هون على نفسك يا (منير) بك .. لن يعلم أحد بشىء .. لا سيادة الوزير صهرك .. ولا حرمه (درية) هانم .. ولا خطيبتك الآنسة (رنا) .. ولا أحد فى هذا العالم .. وسيظل سرك فى بئر .

أطاح الذهول بآخر شعرة فى تماسك (منير) .. سأله بصوت يشبه حشرجة الموت :

ـ وهل تعلم بكل هذا : سيادة الوزير وحرمه وخطيبتى ؟

ـ وكل شىء عنك وعنهم يا باشا .

ـ ولم كل هذا ؟

ـ لأنى لى عند حضرتك حق .

ـ حق ؟! أى حق ؟!

ـ نصف العز الذى تمرح فيه : القصر .. والعزبة .. والسيارات الأربعة .. والمجوهرات .. والأموال التى فى البنك .. ومكتب شارع شريف .. النصف فى كل شىء .. كل شىء .

راح (منير) يردد مذهولاً :

ـ مستحيل .. مستحيل .

ـ ما هو المستحيل ؟

ـ أنت لست إنسيًا .. لست إنسيًا .

ولأول مرة ينفجر الفتى الأغبر ضاحكًا .. ظل يضحك بصوت عال حتى كاد رأسه يسقط أمامه على زجاج

السيارة ، بينما (منير) يحدق فيه مصعوقًا بالذهول والحيرة .. وإذا به يخطر له أن يقذف بهذا الشيطان اللعين خارج السيارة وينطلق عائدًا من حيث أتى .. ولكنه سرعان ما تذكّر تحذيره الإجرامى له ، ثم ما لبث أن أدرك أنه ليس أمامه من حل سوى استعادة تماسكه ، ورباطة جأشه حتى لا يفقد صوابه أو حياته ، فراح يحاول مع نفسه حتى نجح . واستغرق الأمر منه بضع لحظات ، التفت بعدها إلى (سعيد) ، وراح يتفرسه بنظرات قوية مستطلعة ، ثم راح يسأله فى رفق :

- (سعيد) : هل أنت جاد حقًّا فيما قلته ؟

- كل الجدية يا بن الخالة الغالية (حسنية) .

- وما الذى دفعك إلى التفكير فى هذا ؟

- الذى دفعنى هو أننا كنا معًا يوم أن هاجمت العصابة الهانم ، وأنقذناها معًا .

هتف (منير) فى انفعال :

- أنقذناها معًا ؟!

وأجابه الفتى الأغبر ببروده :

- نعم معًا .. ألم نكن معًا فى ذلك الصباح البعيد حين فوجئنا بالهانم مقيدة ومكممة فى مقعدها ، والعصابة تقلب القصر رأسًا على عقب ؟ ألم أرسلك لتبلغ البوليس وانتظرت أنا بجوارها أحرسها حتى أتى البوليس معك ؟ ألم تسأل نفسك ـ ولو لمرة واحدة ـ عن مصيرها إذا ما كنت قد منعتك فى حينها من التدخل والذهاب إلى البوليس ؟ ماذا يا جامع القمامة سابقًا ؟ ألم أكن أنا معلمك فى ذلك الوقت وكان بمقدورى منعك من التدخل ؟ أليست هذه هى الحقيقة يا من تقاسمنا «رغيف العيش» سويًّا يومًا ما ؟ فلماذا تنكر علىّ حقى إذن ؟ هل هذا جزاء صبرى عليك كل هذه السنوات ؟ هل هذا جزاء حفاظى على سرك ؟ أجبنى أيها «النورس الجميل» .. أجبنى يا من تعلمت العدل والإنصاف فى أرقى المدارس والجامعات .. أجبنى بما يجود به إحساسك وضميرك .. أجبنى .

هكذا مضى الشيطان اللعين يستفز (منير) كى يريحه برد أو تعليق .. ولكن أين هو (منير) كى يجيبه ؟ لقد تهاوت كل حواسه تحت هذا الشلال العاتى الذى فاجأه به الشيطان ، فلم تعد به قدرة على أى رد أو تعليق ، بينما ظل

الشيطان يتفرسه بعينين قويتين متبجحتين فى تحدٍ سافر ، حتى تأكد من انهيار فريسته ، فأسرع يسدد لها القاضية :

ـ اسمع يا (منير) بك ، أنا لا أعلم بموعد زفافكما أنت وكريمة معالى الوزير ، ولكن خذها منى صادقة .. إذا لم تعطنى حقى كاملاً كما حددته لك لن يكون هناك زفاف ولا حتى فى الخيال .. بل ستكون هناك فضيحة بجلاجل ، ستجعل معالى الوزير يعلقك من قدميك فى حديقة قصره ، ويشحن (دولت) هانم إلى وطنها الغالى (سوريا) بالثوب الذى يستر جسدها لا أكثر مصحوبة بالفضيحة لا بالسلامة .

وتبدلت لغة التهديد بلغة نصح حانية وهو يكمل وصلته :

ـ وأنا عن نفسى يا (منير) بك لا أعتقد أبدًا أنك ترضى بهذا المصير المؤلم للسيدة النبيلة التى أكرمتك ، وربتك هذه التربية العظيمة ، وكانت لك نعم الأم .

وسكت الشيطان لبرهة ، تأمل خلالها وجه فريسته مليًّا فى ثقة مدهشة ، ثم أردف بلهجته الحانية :

ـ هيا يا (منير) بك .. هيا أدر محرك سيارتك ، وعد بنا من حيث أتينا .



الفصل السابع

لم يدر (منير) كيف عاد إلى القصر ، وكيف بلغ فراشه .. كان وجهه باهتًا كوجوه الأموات .. وكانت عيناه ذاهلتين كعينى المحتضر .. وكان يجر قدميه وكأنه يجر أثقال الأرض كلها بهما .. تهالك جالسًا على حافة فراشه وهو يشعر باختناق يكاد يزهق روحه .. فتح أزرار قميصه ، وراح يتحسس صدره بحثًا عن ذرة هواء تنقذه من عذاب الموت اختناقًا .. ولم يجد ذرة الهواء التى ترحمه ، بل وجد ذهول الدنيا كله يجتاحه كإعصار مجنون لا يرحم .. ووجد صراخه يضرب فى جنباته فى هياج ينذر بالجنون :

ـ ما هذا الذى يحدث ؟! ما هذه المصيبة ؟! من أين جاءت ؟ والآن ؟! فى اللحظة التى بلغت فيها باب الجنة التى ستغسلنى من مرار السنين ؟ الآن ؟! يا له من توقيت !

ووجد نفسه يرفع وجهه المحتقن إلى أعلى ، ويخترق بعينيه الذاهلتين سقف الحجرة إلى السماء ، صارخًا فيها :

ـ يا الله ! كيف هذا ؟! أولد بين أبوين حنونين ، وأنمو فى حضنيهما معززًا مكرمًا مبشرًا بكل خير .. ثم فجأة أجدنى زبالاً يتيمًا مشردًا فى حوش قمامة ، ليلى عذاب ونهارى عذاب ..

ثم إذا بى ابن وزير وصهر وزيـر ، ومـن أصحـاب القصـور والأملاك والخدم والحشم .. ثـم ها أنا مهدد بالقذف بى فى الحضيض مرة أخرى ، بل مهدد بتنكيل وبطش لا يحتملهمـا بشر .. ما هذا يا ربى ؟! من يحتمل هذا ؟ من يحتمله ؟

وراحت كل ذرة فى كيان الفتى تصرخ مستغيثة بخالقها .. ثم إذا بالفتى ينتفض واقفًا ويدور فى الحجرة كالذبيحة .. ثم عاد يتهاوى على حافة فراشه مرة أخرى وهو يضم رأسـه بكفيه ، وكأنه يحـاول منعهـا مـن الانفجـار .. ودخلـت عليـه الهانم ، وتسمرت فى مكانها بمجرد أن وقعت عيناها عليه ، وهتفت مذهولة :

ـ ما هذا ؟! (منير) ؟!

وأسرعت ترفـع وجهـه بيديهـا فـى جـزع ، فـإذا بوجهـه مريعًا مفزعًا ، هتفت مذعورة :

ـ ما بك يا بنى ؟!

ولم ينطق ابنها ، وكأنه فقد النطق ، ولكـن عينيـه تعلقتـا بوجهها ، وقد طفح منهما العذاب طفحًا .. وتضـاعف ذهـول الهانم ، وجلست بجواره تعيد سؤالها :

ـ ما بك يا بنى ؟ هل ضايقك أحد ؟ هل أنت مريض ؟ هل ضاع منك شىء ؟ أجبنى يا بنى ! ما بك ؟

وللمرة الثانية لم يجبها ابنها .. فازدادت حيرتها .. ثم إذا بها تتذكَر (رنا) ، فهتفت به :

ـ هل حدث شىء مع (رنا) ؟

هنـا فقـط تحركـت شـفتا الفتـى .. أجابهـا بصـوت ذاهـل واهن ، وعيناه الهادرتان بالعذاب معلقتان بوجهها :

ـ (رنا) ضاعت .

هتفت الهانم مذهولة :

ـ ماذا ؟!

عاد يرددها :

ـ (رنا) ضاعت .

ـ ماذا تعنى يا فتى ؟

ـ لن أتزوجها .. لن أطأ الجنة .

ـ لماذا ؟

ـ لأن القدر كان ينتظرنى على بابها ؟

ـ قدر ؟! أى قدر ؟!

ـ قدرى يا سيدتى ؟

ـ قدرك ؟! سيدتك ؟! أنا لا أفهم شيئًا .

وراحت تتفرسه فى حيرة لبرهة .. ثم إذا بلهجتها الرقيقة الذاهلة تتحول تمامًا إلى لهجة آمرة قاطعة كالسيف فوجئ هو نفسه بها لأول مرة منذ أن وطأ القصر بقدميه طفلاً غضًا ، هتفت به :

ـ اسمع يا (منير) ، إذا لم تتكلم فورًا وتفصح عما بك فسوف أغادر هذه الغرفة غاضبة عليك ، ولن أرضى عنك بعدها أبدًا .

ـ هوى التحذير الجبار على رأس الفتى كمطرقة هائلة ، فأفاقه على الفور ، وانتشله بسرعة مذهلة من مواته ، ليروى لأمه كل ما حدث بالتفصيل ، وحينما فرغ من حديثه كانت نظرات الهانم تتسمر على وجهه مأخوذة بهول الصدمة .

★ ★ ★

ورن تليفون (منير) المحمول .. ورفع الفتى المذبوح وجهه إلى أمه يتطلع إليها فى حيرة طاغية .. كانت (رنا) هى التى ترن عليه ، عرفها من لحن رنتها الذى خصصه لها .. لحن أغنية «ما أروعك» للمطرب العربى «نبيل شعيل» .. وراح التليفون يواصل رنينه فى إلحاح ، بينما الفتى يحدق فى أمه بحيرته وكأنه يستغيث بها من رنينه .. يومان كاملان والتليفون لا يتوقف عن الرنين ، والفتى يكاد يصرخ فيه بأن يتوقف عن إلحاحه ، حتى فوجئ بفتاته واقفة أمامه فى غرفته ، تحدق فيه مذهولة .. كان أشبه بميت خرج من القبر لتوه .. وجهه مُطفأ شديد القتامة ، وعروقه بارزة بزرقتها المنفرة ، وذقنه نابتة فوق صدغيه بشكل مقزز ، وعيناه حمراوان ذاهلتان غائرتان كعينى شمبانزى مريض .. وفى جملته كان منظره بشعًا مثيرًا للذعر ، حتى إن الفتاة ارتجت بمجرد أن وقعت عيناها عليه .. وأسرعت تأخذ بوجهه بين يديها هاتفة :

ـ (منير) حبيبى ؟ ما الأمر ؟ هل أنت مريض ؟

ولم تتلق الفتاة جوابًا من فمه ، بل تلقت نظرات ميتة ذاهلة من عينيه زادتها جزعًا ، فعادت تهتف به فى توسل :

ـ حبيبى ؟ أنا (رنا) حبيبتك .. أخبرنى عما فعل بك هذا ؟ أهو مرض يؤلمك ؟ أهى مشكلة تعانى منها ؟ أهو سوء وقع بك أو بأحد يخصك ؟ هل ضايقك أحد إلى هذا الحد ؟ تكلم يا حبيبى .. أجب حبيبتك .

ولكن الحبيب لم يتكلم ولم يتلفت إليها ، وكأنه لا يراها أو يسمعها .. وكأنها غير موجودة معه بالمرة .. ولكنها لم تيأس ، مضت فى محاولتها معه بإصرار أكثر :

ـ استحلفتك بأعز الناس لديك .. بـ « ماما » أن تتكلم يا حبيبى .

« ماما » ؟ هنا فقط انتبهت حواس الفتى .. أفاقته كلمة « ماما » ، ودفعت فى وجدانه كله بإحساس غريب .. إحساس جعله يتساءل بداخله فى ذهول : أية « ماما » ينطبق عليها هذا القسم ؟ (حسنية) التى يهدده بها ابن

(عنتر) ؟ أم (دولت) هانم ابنة الحسب والنسب ؟ (حسنية) أمه الحقيقية الباقية فى قلبه كشريان يستحيل انتزاعه ، أم (دولت) هانم أمه العظيمة التى أفنت عمرها فى تربيته ، وأعطته ما لم تعطه أم لابنها حتى صارت هى الأخرى أمًّا حقيقية له بكل ما للأم من حب وجلال وقدسية ؟ أية أم منهما ينطبق عليها هذا القسم ؟ هذه أمه ، وتلك أمه .. الاثنتان أمّان حقيقيتان له .. والاثنتان تساويتا فى الأمومة وفى المكانة حتى توحدتا فى قلبه .. نعم توحدتا وصارتا أمًّا واحدة .. ولكنها أم تختلف عن أية أم .. والقسم بها يستحيل رده .. ووجد الفتى نفسه يرفع وجهه تجاه الفتاة المذهولة ويحدجها بنظراته المعذبة الحائرة ، فأسرعت الفتاة تعيد عليه القسم فى رجاء وتوسل ، بل وتستحلفه أيضًا بحبهما الكبير أن يرحمها ويتكلم .. وبدا عليها ألم شديد جعل الفتى ينطق رحمةً بها :

ـ سأجيبك يا مودموزيل (رنا) .. سأخبرك بما فعل بى هذا .. سأحك ...

وإذا بحديث الفتى ينقطع فجأة ، ولسانه يتسمر داخل فمه .. فقد فوجئ الاثنان بـ (دولت) هانم تقتحم الغرفة مندفعة نحو الفتى ، لتأخذه فى حضنها قائلة :

- أستحلفك أنا يا بنى بحبك لماما ولحبيبتك هذه أن تنام الآن وتؤجل أى حديث حتى تسترد عافيتك .

وهم الفتى بأن يرد بشىء ، فإذا بالهانم تقول له فى توسل غريب على شخصيتها :

- حبيبى ، أنا أمك (دولت) أطلبها منك .. استرح الآن ، وحينما تسترد عافيتك قل ما تشاء ..

وراحت الهانم تدفعه برفق نحو فراشه ، ولم تتركه إلا وهو راقد فيه .. ثم استدارت نحو (رنا) قائلة لها بنفس الرجاء :

- وأنت يابنتى أستحلفك بحبك الكبير لـ (منير) أن تتصرفى الآن ، وتتركيه لبعض الوقت حتى يتصل هو بك ، مع وعد منى بألا يطول هذا .. وثقى بأن الأمر سيكون على ما يرام .. ثقى فى ذلك ..

وبذهول عاصف نقلت الفتاة بصرها بين الأم الجليلة الواقفة أمامها غارقة فى ضعفها ، والحبيب الممدد فى فراشه تصرعه محنة غامضة ، ثم استدارت منصرفة .





الفصل الثامن

فوجئ سكان حوش (مسعدة) بالسيارة الملاكى الضخمة تدخل الحوش .. وتجوس وسط القمامة قاصدة العشش التى يسكنها أهل الحوش .. وتسمر كل من فى الحوش فى مكانه .. وخرج من كان فى العشش .. وجحظت العيون مذهولة وهى تتابع السيارة .. وتجمهر أطفال الحوش حول السيارة العظيمة يزفونها بالتهليل والغناء حتى نهرهم أحد الزبالين بقسوة .. وعندما بلغت السيارة العشش توقفت ، ونزلت (دولت) هانم تسأل عن (سعيد أبو الغيط) ، وقبل أن يجيبها أحد كان (سعيد) يقبل عليها بهيئته الغبراء فى تمهل ، ويرحب بها فى ثقة ، وكأنه كان ينتظرها :

ـ أهلاً (دولت) هانم .. نورتى الحوش .

ثم التفت الفتى الأغبر إلى سكان الحوش المتجمهرين حولهما ، ونهرهم بحدة ، فسارعوا جميعًا بالتقهقر إلى الخلف فى ذعر .. ثم عاد بنظراته مرة أخرى إلى الهانم ، وقد اكتسى وجهه فجأة بكل علامات الأسى والانكسار ، وبادرها قائلاً :

ـ أنا (سعيد أبو الغيط) يا (دولت) هانم .. أنا من أنقذت حضرتك من العصابة مع (خليفة) .. عفوًا .. مع (منير) بك .. أنا من بقيت فى القصر بجوار حضرتك معرضًا نفسى للهلاك على أيدى العصابة ، وأرسلت (خليفة) .. عفوًا .. (منير) بك إلى البوليس .. ألم يكن من المحتمل يومها أن تقتلنى العصابة إذا اكتشفت وجودى فى القصر ، بينما (خليفة) .. عفوًا .. (منير) بك فى مأمن لأنه كان فى قسم البوليس ؟ أى فى الحماية كلها ؟ إننى طوال هذه السنوات التى مضت لم أكف عن سؤال نفسى .. كيف انقلبت الموازين هكذا ؟ كيف يكون جزاء من كان بعيدًا عن الخطر هو كل هذا العز الذى يتمتع به (خليفة) .. عفوًا .. (منير) بك الآن ؟ بينما يكون جزاء من عرّض نفسه للهلاك من أجل حضرتك هو العيش فى هذا الضياع ، مع القمامة والحشرات والجوع والعرى ؟ هل من إجابة لديك لكل هذه الأسئلة أيتها الأديبة العظيمة التى تنشر بقلمها العدل والإنصاف بين البشر ؟

وسكت الفتى الأغبر فى انتظار الإجابة من الهانم .. ولكن الهانم كانت قد بُهتت من حديث الفتى ، فراحت تحدّق فيه مذهولة حائرة تسائل نفسها :

ـ ما هذا ؟ أهذه هى الحقيقة ؟ هل هذا المخلوق يشعر بالظلم حقًا ؟ هل ظلمته حقًا حين اعتقدت فى حينها أن (خليفة) هو الذى أنقذها من العصابة ؟ صحيح أنها كافأت الطفلين معًا فى حينها .. وصحيح أيضًا أن مسألة تبنيها لـ (خليفة) لم تقم أساسًا على هذا الحادث .. ولكنها فى الحقيقة أيضًا ظل يتملكها طوال هذه السنوات يقين مطلق بأن (خليفة) وحده هو الذى أنقذها .. وأن (سعيد) لم يبال للحظة بإنقاذها أو هلاكها .. ولا يمكنها مطلقًا أن تنكر أن هذا اليقين شكل جزءًا كبيرًا من أمومتها لـ (خليفة) .. فهل بُنى كل هذا على باطل ؟ وعادت الهانم تحدّق فى الفتى الأغبر مبهوتة ، وقد انفجرت بداخلها مشاعر مؤلمة ، واجتاحتها حيرة طاغية .. وإذا بالفتى وكأنه قرأ كل ما دار بداخلها يدنو منها أكثر ، ويقول لها فى ألم :

ـ نعم يا ست هانم .. أنا الذى أجبرت (خليفة) .. عفوًا .. (منير) بك على الإسراع بإبلاغ البوليس .. وأنا الذى خاطرت بنفسى فى سبيل إنقاذك .. وفى النهاية أنا السبب الحقيقى فى وقوفك حية أمامى الآن .. فهل من العدل أن ينقلب الجزاء هكذا ؟

وارتجت الهانم .. ارتجت تحت ثقل السؤال وحيثياته التى حملها الفتى بمرارة لا تحتمل .. وكان عليها أن تجيب ، وفى حالة رفضها ستكون قد دفعت بإحساس الفتى بالظلم والمرارة إلى ذروته ، وهنالك لن يتردد فى نسفها بالفضيحة التى هدد (منير) بها .. إذن فعليها احتواء مرارته هذه وإحساسه بالظلم ، وعليها الوصول معه إلى حل يرضيه .. وفتحت فمها لتفعل ، فإذا بصرخة فتاة تدوّى من خلفها :

ـ لا يا ست هانم .. لا .

وتسمر الفتى الأغبر فى مكانه من المفاجأة ، بينما استدارت الهانم لتُفاجأ بفتاة جميلة ترتدى عباءة حريمى فاخرة ، ويزين صدرها ويديها وأذنيها ما يقرب من النصف كيلوجرامات من المجوهرات ، وتحفها هالة القوة والسطوة .. كانت تلك هى (شربات) التى كانت قد بلغت الخامسة والعشرين من عمرها ، وورثت عن (مسعدة) الحوش بمحتوياته ، وعقارات متناثرة فى أنحاء القاهرة ، وأموالاً طائلة فى البنوك ، ومع ذلك فضلت استئناف حياتها فى الحوش مع أهله ترعاهم ، وتمارس معهم نفس نشاط

المرحومة (مسعدة) .. أقبلت (شربات) على الهانم حتى وقفت أمامها تقول فى انفعال :

- لا يا ست هانم .. ليست هذه هى الحقيقة .. (خليفة) هو الذى أنقذ حضرتك .. وهذا الصعلوك ما كان يعنيه إنقاذك أو هلاكك .. كلنا هنا نعرف هذه الحقيقة .. وهذا الواقف أمامك مرتديًا قناع المظلوم المسكين ما هو إلا بلطجى لعين يعيش على الابتزاز والنهب ، وترويع هؤلاء الناس الكادحين .. إنه ليس أكثر من كلب مسعور ، واسألى هؤلاء المساكين .

وراحت الفتاة الشجاعة تشير إلى سكان الحوش المحيطين بهم ، ثم مضت فى نزع ستار الضلال الذى يتقنّع به الشيطان دون تحسب أو خوف .. ولكنها فجأة خرست تمامًا .. أخرستها صفعة هائلة من الشيطان أطاحت بها بعيدًا فوق تلال القمة ، وليته اكتفى بذلك ، بل سارع بالانقضاض عليها فى وحشية ، فما كان من الفتاة إلا أنها راحت تصرخ فى الهانم من تحته :

- عودى يا ست هانم .. عودى إلى ابنك الذى أفنيتى عمرك عليه وأحسنتى تربيته .. عودى إلى ابنك الذى كان بارًا بك من قبل أن تهبيه أمومتك ، ولم يجحدك يومًا ما .. عودى إلى (منير) بك الطيب الأصيل ، الذى ليس له أم

سواك وليس لك ابن سواه .. عودى ولا تصغى لهذا الشيطان ، فليس فى قلبه إلا السواد والحقد .. إنه شيطان يا ست هانم .. شيطان ..

ومضت الفتاة تصرخ فى الهانم تستحثها على العودة .. مضت تصرخ وتصرخ غير مبالية بوعورة ما تفعل ، حتى انفجر جنون الشيطان .. فإذا به ينقض عليها ضربًا بوحشية وجنون مروّع ، وهى تصرخ وتبكى تحته ، بينما أهل الحوش متسمرون فى أماكنهم يبكون معلمتهم الطيبة الشجاعة فى ذعر .. ولكنهم فجأة ضربهم الذهول وهم يشاهدون الهانم تندفع نحو الوحش ، وتنشب أظافرها فى عنقه فى محاولة مستميتة لإنقاذ الفتاة المسكينة منه .. ولم تتوقف عن محاولتها إلا حينما دفعها الوحش المجنون هى الأخرى دفعة جنونية طوحتها بعيدًا فوق الأرض .

★ ★ ★

وطار الخبر إلى (منير) ..

وإذا بالفتى الرقيق الحالم يتحول بمجرد سماعه الخبر إلى نمر هائج .. وإذا به لأول مرة منذ دخوله القصر يقتحم

غرفة (عز الدين محيى) ، ويندفع مقلّبًا أدراج مكتبه بحثًا عن شىء ما فى عصبية أشبه بالجنون !! ووجده ! « مسدس » الباشا !! وفى لمح البصر كان ينطلق بسيارته صوب الحوش ، وبجواره مسدس الباشا محشوًا بالأعيرة النارية ..

كان الليل قد هبط بظلماته على المدينة .. وكانت السحب الرمادية الداكنة قد احتشدت فى سمائها منذرة بليلة ممطرة ، فخفت حركة الناس فى الشوارع .. واندفع قائدو السيارات بسياراتهم فى سباق محموم إلى ديارهم قبل هطول المطر .. ولكن (منير) كان أسرعهم على الإطلاق .. انطلق بسيارته يخترق الشوارع بعصبية مجنونة .. لم توقفه إشارة مرور أو تقاطع طرق أو عابر طريق .. وبدا وكأنه فقد السيطرة تمامًا على السيارة وعلى نفسه .. وكان جسده كله ينتفض من فرط عصبيته .. وكانت عيناه جاحظتين مخيفتين تكادان تخرجان من محجريهما من شدة غضبه .. وكانت أسنانه تصطك ببعضها من هول غيظه .. وكانت يداه تقبضان على مقود السيارة بتشنج المجانين .. كانت حالته فى مجملها تنذر بكارثة .. ولكن حالته هذه لم توقفه .. بل استمر فى انطلاقه حتى اخترق حوش (مسعدة) !!

ها هو الفتى يعود إلى الحوش مرة أخرى بعد ستة عشر عامًا كاملة !! يعود إليه لأول مرة منذ خروجه منه فى يد أمه طفلاً غضًا لا يملك من أمره شيئًا .. وما أشبه اليوم بالبارحة ! بالأمس غادره بعذابه ودموعه إلى مصير مجهول .. واليوم يعود إليه أيضًا بعذابه وسعير غضبه مدفوعًا إلى مصير مجهول .. اخترقه بعصبيته التى تعمى بصره وتصم أذنيه .. قفز من السيارة قابضًا على المسدس بعنف ، صارخًا فى هيستيريا :

ـ (سعيـ يـ يـ يـ يـ د) ..

ودار دورة كاملة حول نفسه باحثًا بعينيه عن الشيطان الأغبر ، فإذا به لا يرى سوى جحيم مستعر !! كانت النار مضرمة فى الحوش من كل اتجاه ، وألسنتها تنطلق إلى السماء فى سباق مجنون .. كان الحوش كله يحترق .. وكان خاليًا تمامًا من سكانه الذين فروا جميعًا من هذا الجحيم طلبًا للنجاة .. وكان رجال الإطفاء يستميتون فى إخماد النار المتوحشة .. وتجمد الفتى فى مكانه من الصدمة والذهول .. وقبل أن يسأل نفسه عن كيفية اختراقه لهذا الجحيم دون أن يشعر به كان رجال الإطفاء يسارعون

بانتشاله .. وإذا بصراخ (شربات) يأتى مدويًا من بعيد .. من خلف النار المضرمة :

ـ (منير) بك .. (سعيد) فى الحوش .. (سعيد) فى الحوش سكران لا يشعر بالحريق .. أدركه يا (منير) بك .. لا تتركه يموت .. النار ستلتهمه .. أنا (شربات) يا (منير) بك .. أنا (شربات) أستحلفك بماما (حسنية) أن تنقذه وألا تتركه يموت محترقًا .. أستحلفك بماما (حسنية) ، وبلقمة عيش أكلناها معًا يومًا ما ..

وتسمر (منير) بين أيدى رجال الإطفاء .. ضربه الذهول .. انتفضت كل خلاياه .. حدّق فى رجال الإطفاء مذهولاً .. وإذا بـ (شربات) تواصل صراخها :

ـ (سعيد) سيحترق يا (منير) بك .. (سعيد) لا يشعر بالحريق .. النار ستلتهمه .. أدركه يا (منير) بك .. أستحلفك بماما (حسنية) أن تدركه .. أستحلفك بماما (حسنية) ..

وإذا بـ (منير) ينفلت من أيدى رجال الإطفاء ، وينطلق جريًا وسط النيران وهو يصرخ من قلبه :

ـ (سعيـ يـ يـ يـ يـ يـ د) ..

وبخبرته القديمة منذ أيام طفولته فى الحوش انطلق صوب المكان الذى اعتاد (سعيد) أن يجالس فيه رفاق السوء ، ويحتسون معًا الخمر حتى يفقدوا وعيهم .. وعثر عليه هناك طريح الأرض غير واع لجهنم التى تحاصره وتكاد تلتهمه .. وبكل عزمه وقوته انتشله من فوق الأرض ، وقذف به فوق كتفه ، وانطلق يخوض به بحر النيران .

★ ★ ★

أمسك (منير) بيد (سعيد) ، وهو يسأله فى حنو :

ـ كيف حالك الآن يا (سعيد) ؟

كان (سعيد) يرقد فى فراشه فى المستشفى الاستثمارى الذى نقله إليه (منير) لعلاجه من آثار طفيفة للحريق .. وكان (منير) يجلس بجواره فى مقعد واضعًا ساقًا فوق ساق فى ثقة وشموخ ، بينما يقف حولهما عدد من أهل الحوش تتقدمهم (شربات) .. ولم يجب (سعيد) (منير)

على سؤاله ، وإنما راح يحدّق فيه فى بلاهة وحيرة حتى هتفت به (شربات) :

ـ ما قلة الذوق هذه يا بن (عنتر) ؟ ألم تسمع (منير) بك ؟

وأجابها (سعيد) دون أن يزحزح عينيه عن (منير) :

ـ ليست قلة ذوق يا (شربات) ، بل دهشة .

وسأله (منير) مبتسمًا :

ـ دهشة من ماذا يا بن (عنتر) ؟

ـ من أمرك يا (منير) بك .

أدرك (منير) مقصده .. أجابه فى تواضع :

ـ ليس فى الأمر ما يستحق الدهشة يا فتى .

تأمله (سعيد) مليًا لبرهة ، ثم إذا به يسأله :

ـ هل راهنت على أن إنقاذك لى قد يجعلنى أتراجع عن نيتى نحوك ؟

لم يجبه (منير) ، وظل يتأمله ببشاشته ، فأردف الفتى :

ـ وإذا كنت حضرتك قد راهنت على ذلك ، ألم يخطر ببالك أنك قد تخسر الرهان ولا أتراجع أنا عما نويته لك ؟

وللمرة الثانية لم يجبه (منير) ، وظل يتأمله بنفس بشاشته ، فدُهش (سعيد) ، وعاد يسأله :

ـ ماذا يا (منير) بك ؟ لماذا لا تجيبنى ؟

ـ أنتظرك حتى تلقى ببقية أسئلتك التى تحيّرك .

ـ هذا كل ما عندى .

وبثقته المتناهية فى نفسه ، وبهدوء شديد راح « النورس الجميل » يجيبه على أسئلته :

ـ أولاً يا بن (عنتر) .. حينما وجدتك أمامى ملقى على الأرض فاقدًا الوعى ، والنار تقترب منك لم أفكر فى شىء مما تقوله هذا ، ولم يخطر ببالى مطلقًا رهانك الساذج هذا . ولم أتذكّر شيئًا مما فعلته بى .. تلاشت كل مشاعرى المريرة تجاهك فى هذه اللحظة ، ولم يتبق بداخلى سوى هم

واحد تملكنى ، وهو أن أنقذك من النار .. أنقذك منها وإن احترقت أنا فيها بدلاً منك .

طلقة ! طلقة من نوع خاص دوّت فى قلب ابن (عنتر) ، فإذا بها تفجر بداخله طوفان من مشاعر لم يعرفها ولم يحسها من قبل .. انتفض وجدانه كله لأول مرة فى حياته . واستيقظ الإنسان فى داخله لأول مرة فى حياته .. وخفق قلبه حبًا وتأثرًا لأول مرة فى حياته .. ثم إذا بشعور آخر عجيب يزاحم كل هذه المشاعر بقوة : شعور بالندم ، وبالخجل ، وبالتضاؤل .. وإذا فى النهاية بتنهيدة ملتهبة تنطلق من أعماقه حاملة لهيب كل هذه المشاعر ، وحاملة غبار الشر الذى كان يملؤه إلى غير رجعة .. كان الانفجار قويًا داخل الفتى حتى إن عينيه تسمرتا على وجه « النورس الجميل » دون تعليق للحظات .. ولكنه ما لبث أن انتشل نفسه من طوفان مشاعره ليعاود سؤال « النورس » :

ـ هذا أولاً ، فماذا عن ثانيًا ؟

ـ ثانيًا : انهض من فراشك بالسلامة ، ثم افعل ما شئت ، فأنا لا أخشاك ، وسأكسر عنقك إذا ما حاولت مضايقتى مرة أخرى .

بُهت ابن (عنتر) ، وراح يحدّق فى « النورس » مذهولاً من تحذيره ومن لهجته القاطعة كحد السيف ، بينما كادت قلوب الواقفين تتوقف عن النبض خوفًا من رد فعل الفتى الأغبر .. أما « النورس » نفسه فلم تهتز له شعرة .. ظل ثابتًا فى مقعده ، بينما نظراته تتصدى لنظرات الفتى الأغبر فى ثقة وتحد ورباطة جأش مذهلة .. وتكهرب الجو للحظات بدت كالدهر ، حتى فوجئ الجميع بالفتى الأغبر يبتسم لغريمه قائلاً له :

ـ أنت حقًا ابن (حسنية) .

وإذا بـ (شربات) تهتف فيه محتدة :

ـ (سعيد) ؟!

فأجابها (سعيد) مبتسمًا دون أن يرفع عينيه عن «النورس» :

ـ ما عنيته هو أن (حسنية) كانت شجاعة ، و (منير) بك ورث عنها شجاعتها .

وإذا بـ «النورس» ينبهه بنفس الثقة والهدوء :

ـ عندما تتحدث عن أمي قل الست (حسنية) يا (سعيد) !

وإذا بـ (سعيد) يقول في خجل ، وبلهجة مهذبة :

ـ أنا آسف يا (منير) بك .

وقبل أن يفوق أهل الحوش من دهشتهم ، كان (سعيد) يلتقط يد (منير) ، ويقبلها قائلاً :

ـ أنا آسف على كل ما بدر منى فى حقك يا (منير) بك .. أرجو أن تقبل اعتذارى !!

وضرب الذهول الجميع !!

★ ★ ★

تسعة أيام مرت بـ (رنا) ودموعها لا تتوقف كلما انفردت بنفسها .. أبلغت والديها بأن حبيبها فى رحلة سفارى مع أصدقائه ستستغرق بضعة أيام .. ثم أسلمت نفسها لحيرتها ودموعها وعذاب لا يُحتمل ، ولتساؤلاتها التى لم تجد لها جوابًا واحدًا : ماذا حدث ؟ ما الذى أصاب حبيبها هكذا فجأة ؟ لقد كان معها على التليفون يكاد يرقص من فرط سعادته بها .. وأبلغها بأنه فى طريقه إليها ، ثم إذا به لا يحضر ولا يتصل ، ولا يرد على تليفوناتها .. وحينما هرعت إليه فوجئت به يتأرجح بين الحياة والموت .. وعندما هم بأن يفسر لها اللغز فوجئت بـ (دولت) هانم تمنعه .. فما كل هذا الغموض ؟ هل هى فتاة أخرى دخلت حياته بدلاً منها وكانت سببًا فى صدامه بأمه وكانت النتيجة هى حالته هذه ؟ لا .. حالته لا تنبئ بهذا مطلقًا .. إنها حالة غامضة ، ووراءها أسباب غامضة .. وكل ما فهمته هو أن (دولت) هانم لا تريد إفشاء هذه الأسباب .. وهذا من حقها .. ولكن حبيبها يمر بمحنة .. أفليس من واجبها

أن تكون بجواره فى محنتــه ؟ لقد طمأنتها (دولت) هانم بأن الأمر سيكون على ما يرام ، وبأن حبيبها سـوف يتصل بها .. ولكن كيف تتركه هكذا حتى يتصل بهـا ؟ كيف تكون بعيدة عنـه فى أول محنـة تصادفه وهو حبيبهـا ؟ وكيـف يوافق حبيبها نفسه على استبعادها عنـه فى محنتـه هذه ؟ يا لها من قسوة منك أيها الحبيب .. يا لها من قسوة منك ..

وراحت الفتاة الرقيقـة تذرف الدمع السخين .. وراحت تشكو حبيبهـا الغائب إلـى ورود حديقتهـا ، وإلـى قمرهـا ونجومها ، وتتوسل إليهم أن يعيدوا إليها حبيبها الغائب .

وتمر الأيام بطيئة مؤلمة مشبَعة بالحزن واللوعة .. تمر ولا شىء فـى حيـاة الفتـاة الرقيقـة سـوى الأنين والدمـوع والعزوف عن الطعـام والشـراب ، وإلحـاح مـن الوالديـن والأقارب والأصدقاء لمعرفة سر مـا أصابهـا ، حتـى وجدت نفسها تفر من الجميـع .. انطلقت إلـى المكـان الـذى شـهد أجمل يوم فى حبهما .. إلى جزيرة «دهب» المقابلة لمدينـة

« الغردقة » .. وهناك قبعت وحيدة بالجزيرة الخالية تشكوها قسوة حبيبها ، وتتوسل إليها أن تسـتدعيه إليهـا ، حتـى غشيتها الدموع .. وإذا بصوت يهبط عليها مـن الفضـاء .. صـوت جعلهـا تتوقـف عن البكـاء وتسترق السمع ، بينمـا الصـوت يـزداد اقترابًـا .. نعـم ! إنــه يقـترب ويقـترب .. معقـول ؟! إنــه هـو .. صـوت الحبيب .. صـوت « النـورس الجميل » .. ورفعت رأسـها صوب مصدر الصـوت ، فـإذا بزورق مقبل عليها يشق الماء كالسهم المنطلق .

وإذا بالحبيب واقفًا فى مقدمته يناديها بأعلى صوته :

ـ (رناااااااااااا) ..

وطغت دهشة الفتـاة ، وراحت تفرك عينيها غير مصدّقة ، ولكن دهشتها لم تطل .. إنه هو ! هو ! حبيبها .. « النورس الجميـل » بكـل بهائــه ووسامته وسـحره .. وبكـل شـوقها الجنونى همت العصفورة الفاتنة بأن تلقى بنفسها فى المـاء كى تعجّل بلقائه ، ولكنه كان قد سبقها وقفز إلـى الجزيـرة ، ليعتصرها فى حضنه .. لحظات طويلة مضت وهما متعانقان

غير قادرين على الكلام .. ولكن « النورس الجميل » نطق فى النهاية .. همس لها :

ـ سامحينى يا حبيبتى .

ووضعت العصفورة الرقيقة أصابعها فوق شفتيه هامسة :

ـ حبيبى ، لا تتكلم .. ضمنى .. ضمنى أكثر فى صدرك .

تمـــــت

زهور

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

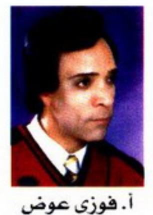
صدر من هذه السلسلة :

1 ـ من أجلك .
2 ـ لا تقل وداعاً .
3 ـ قلوب لا تنبض .
4 ـ الدموع الباردة .
5 ـ هى فى حياتى .
6 ـ ياقلب لا تغفر .
7 ـ النبع الجاف .
8 ـ طيور بلا أجنحة .
9 ـ رسالة حب .
10 ـ لعبة القدر .
11 ـ العصفور الجريح .
12 ـ أشجار الحب .
13 ـ رحلة قلب .
14 ـ شمس الليل .
15 ـ الحب بلا أرقام .
16 ـ لقاء الحب .
17 ـ المرأة السوداء .
18 ـ حب وكراهية .
19 ـ وذاب الجليد .
20 ـ حب وسط النيران .
21 ـ دموع كيوبيد .
22 ـ أوهام الحب .
23 ـ نداء قلبى .
24 ـ حذار من الحب .
25 ـ الموعد .
26 ـ وداعاً يا حبى .
27 ـ حبى المعذب .
28 ـ لك قلبى .
29 ـ الحلم .
30 ـ زوجى .
31 ـ الحب والمعجزة .
32 ـ وداعاً للماضى .
33 ـ طائر غريب .
34 ـ هذا الرجل .
35 ـ التقينا من جديد .
36 ـ نسمة الصباح .
37 ـ لن أعود .
38 ـ الشريكان .
39 ـ أنت قدرى .
40 ـ بلا أمل .
41 ـ أحلام ضائعة .
42 ـ أبى الحبيب .
43 ـ الحاجز .
44 ـ لن أنساك .
45 ـ ستبقى فى قلبى .
46 ـ أحببتك فى صمت .
47 ـ رجل وقلبان .
48 ـ الحب الجريح .
49 ـ الحب والاختيار .
50 ـ وابتسمت الحياة .
51 ـ اللقاء الأخير .
52 ـ عودة الغائب .
53 ـ أمواج الحب .
54 ـ معك دائما .
55 ـ اغفر لى .
56 ـ لقاء فى الغروب .
57 ـ جدار الماضى .
58 ـ لأنى أحبك .
59 ـ الأسيرة .
60 ـ مرحبا بالحب .
61 ـ شمعة لا تنطفئ .
62 ـ لا ترحلى .
63 ـ لمسة حب .
64 ـ الصديقتان .
65 ـ الوجه الدميم .
66 ـ خفقات قلب .
67 ـ جراح الماضى .
68 ـ حبيبتى الوحيدة .
69 ـ آلام الحب .
70 ـ كفانا عناداً .
71 ـ رجل أحببته .
72 ـ نبع الحب .
73 ـ مشاعر دافئة .
74 ـ أشواك الحب .
75 ـ لن أبكى .
76 ـ قلوب حائرة .
77 ـ وداعاً للأبد .
78 ـ فتاة جميلة .
79 ـ قسوة وغفران .
80 ـ ليس من أجلى .
81 ـ سحابة صيف .
82 ـ زهرة برية .
83 ـ زهرتى الجميلة .
84 ـ ابتسامة القدر .
85 ـ لعبة الزمن .
86 ـ شاطئ الأمان .
87 ـ فجر جديد .
88 ـ حب وحرمان .
89 ـ ليل ونهار .
90 ـ سأنتظرك دائماً .
91 ـ بعد الانتظار .
92 ـ حب بلا موعد .
93 ـ زواج العمر .
94 ـ القرار الصعب .
95 ـ معنى السكوت .
96 ـ يارا .
97 ـ اغفر يا قلب .
98 ـ الحائرة .
99 ـ ملاك الحب .
100 ـ أزمة منتصف العمر .
101 ـ ورود وأحجار .
102 ـ النورس الحزين .

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى



السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل



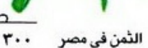
أ. فوزى عوض

النّورس الحزين

كان الموقف مروّعًا : أم .. أم حقيقية .. أم حنون .. أم تفيض أمومة ، وتحمل بين ضلوعها قلبًا عليلاً ، لا يربطه بالحياة سوى وحيدها الذى لا يعى فى الحياة شيئًا ، تجبرها الظروف على قطع هذا الشريان بيدها ، وحرمان نفسها من مصدر الحياة الوحيد لها ، وإعطائه ظهرها .. مستقبلة الموت قبل أوانه ، وطفل غض يتيم ليس له في الدنيا صدر حنون سوى صدر أمه ، ينزع منه فجأة بلا رجعة ..

102

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والاسكندرية
٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية الرقم البريدى ١١٣٨١
ت: ٢٥٨٦١٩٧-٦٨٣٥٥٥٤-٥٩٢٨٢٠٢



الثمن فى مصر ٣٠٠

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

